

مشروع الإرهاب على سوريا  
ظاهرة العصر - ومهام الشر المطلق

أ. د. أحمد الحاج علي

مخطط البحث:

المقدمة العامة:

- أولاً) - ظاهرة الإرهاب من المنابع إلى العوامل إلى الكيفيات التي اتخذها تاريخياً.
  - ثانياً) - المصادر والوسائل والأدوات التي بُني فيها المشروع الإرهابي.
  - ثالثاً) - المصدر الإسلامي في التأسيس والتوظيف الاستعماري الإرهابي الراهن.
  - رابعاً) - إطلاقات مكثفة على حال المجتمعات الإسلامية.
  - خامساً) - معطيات العصر الأساسية في بناء المنظومة الإرهابية.
  - سادساً) - لماذا سوريا بالذات.
  - سابعاً) - منظومة التكامل في الأهداف والوسائل التي انتظمها العدوان على سوريا.
  - ثامناً) - المراحل والأبعاد التي انتهجها العدوان الإرهابي في سوريا.
  - تاسعاً) - مقومات الأداء الوطني السوري في الرد على الإرهاب.
  - الخاتمة: عن أساسيات المنهج السوري في مرحلتي الرد والردع.
- المصادر والمراجع الأساسية.

### المقدمة العامة:

تحتّم الأمانة العلمية أن نتعاطى مع المفاسل الكبرى في تاريخ الأمم والحضارات على أنها ظواهر وليست مجرد وقائع وأحداث مهما كانت درجة فعلها في اللحظة الراهنة، هذا ما يمكن أن يميز الصراع الراهن على سوريا وفي سوريا بوصفه ظاهرة تمتلك شروط الاستقرار والاستمرار في سياق واحد، وهذا يعني أن نتابعها في حقائق ثلاث أساسية:

1. تتشكل الظاهرة التاريخية على منهج التكامل الزمني والإرادي في بنائها وانفجارها وتداعياتها، أي أن الظاهرة فعل متراكم لا يصدر من الفراغ، ولا يعبر على خط الفراغ، ولا يؤول في نهاية الأمر إلى الفراغ، وحدهم الذين ينسبون الظاهرة إلى قوى وظروف جاءت بطريقة القطع، أو تسللت تحت وطأة الظلام، أو أنها مجرد مكيدة دُبرت بلبيل. وهذا يدفعنا إلى أن نؤكد بأن المفاجآت بالحياة البشرية ليست سوى تبريرات للتخفيف أو التنصل من المسؤولية في معايشة الظواهر الكبرى، ولربما في التنصل من المسؤوليات المترتبة على الناس، سواء أكانوا في موقع المسؤولية، أو كانوا مجرد أفراد في الحياة العامة. نحن لا ننفي المفاجآت، ولكن التمييز ضروري بين المفاجأة وبين من يقع تحت تأثيرات هذه المفاجأة، باستمرار يوجد أناس يقعون في المفاجأة نظراً إلى غيابهم بالوعي والمتابعة عن خط الأحداث، عندها تكون المفاجأة هي الذريعة للتنصل من مسؤولية وقوعها، باختصار لدينا بشر يفاجئون وليس لدينا مفاجأة بالمعنى الطوباوي لهذا المصطلح.

وبالمحصلة فإن سياق الظواهر يؤكد في حياة الأمم والحضارات أن كل خطوة راهنة هي محصلة السابق ومقدمة للاحق، والوعي الوطني يتطلب بالضرورة أن نعيش تفاصيل الوقائع من خلال هذه القاعدة، ومن ثمّ نبتعد عن وصولنا إلى

لوثتين، الأولى هي الانقطاع عن خط الحياة والتحولات والإغراق في فكرة المستقر الدائم، واستبعاد أي خطر يقوم على فكرة تكرار الزمن المتكرر، إلى أن يأتي ما هو في غير توقع أو مقدمات مباشرة وساخنة. إن قصة النوم التاريخي عند الشعوب هي جزء عضوي ومهم من قصة الكوارث الكبرى التي تصيب الشعوب المستغرقة في النوم التاريخي. أما اللوثة الثانية فهي المتمثلة في وهم مقدار القوة المادية والمعنوية المتوافرة لهذا الوطن أو ذلك، وبناء الحسابات على منطق العصمة من اختراق هذه القوة والوقوع في مطب إغراءات التهويل بالذات، والتهويل إلى حد الاعتقاد بأن القوة الظاهرة أو الكامنة المادية والمعنوية إنما هي حصن الأمان الذي لا تمتلك العدوانات الخارجية اختراقاته أو التحرش به.

2. إن الواقع العربي العام سوف يبقى بتشكيلاته السياسية والاجتماعية المادة الجاذبة للإرادات الخارجية كلها، أي أن درجة التحصين في هذا الواقع ليست ضعيفة فحسب، بل هي منطقة رخوة في حالات كثيرة تستدعي عناصر استمرار من فيها وما فيها من الخارج. يقول محمد حسنين هيكل: "نحن أمام تقسيم جديد لعالم عربي ضاع منه مشروع نظامه، أو أضاع هو مشروع نظامه، ولذلك جاء إلي فضاء المنطقة من يرسم خرائطها الجديدة، في ظروف جديدة، لها مواصفاتها الجديدة"<sup>(1)</sup>. لعله من هذا المنطق كانت تقديرات الرئيس بشار الأسد منذ بداية العدوان ولاسيما في العام الثالث للحرب إذ يقول: "إنه مهما فعل فإن ثمة مؤامرة دولية وإقليمية كانت ستضرب سوريا نظراً إلى دورها وموقعها ودعمها للمقاومة". إن مثل هذه المؤشرات هي التي نستمد منها مباشرة عوامل تكوين هذه الحرب على سوريا وعوامل التكوين هذه تقوم في منصات أربع:

<sup>(1)</sup> - صحيفة الأهرام، في غياب مصر خرائط جديدة تتشكل، 23 أيلول 2011، العدد 45581.

أ- المنصة الأولى متصلة بالإرادة العدوانية الاستعمارية الخارجية أو المحيطة، التي تحتفظ بالهدف المحدد في هذه الجغرافيا أو تلك، وهذه الإرادة هي ثابرة في العمق، وهي متحركة حسب درجة الواقع في هذا البلد أو ذلك، ووفق التحولات التي تحيط بهذا البلد أو ذلك، لكن هذه الإرادة الخارجية متحركة، وهي في حالة الحركة، وحركتها أكثر وهي في لحظة السكون أو الترقب، وهذا ما يستدعي أن تكون الدراسة والمتابعة قائمة وبقظة على أساس الوعي بالقوى الخارجية، وليس مجرد الارتهان للحظة الساكنة أو المترهلة في هذا الزمن أو ذلك. إن الثابت في تحديد القوى الطامعة أمر مهم، ويجب أن يبقى في التداول وعلى قيد الحياة في الحسابات السياسية والعسكرية والثقافية، ثم إن هناك أدوات جديدة ومتجددة تدخل في الاستثمار الاستعماري، ومعروف أن الغرب على سبيل المثال بدأ يعبر عن نقص الكادر البشري لديه في الذهاب نحو التعويض بالتوغل التكنولوجي الذي يصبح السلاح المادي الأهم في قهر إرادة الشعوب، وكذلك في ابتداع قصة الأتباع والوكلاء من التنظيمات السياسية ومن الشرائح المؤهلة للاختراق، وكذلك من تأثيرات المشروع الخارجي في الداخل في هذا البلد أو ذلك، فعلى سبيل المثال يقول السفير الفرنسي السابق ريمبو (Rimbaud): "إن الإخوان المسلمين كانوا منذ البداية خلف التطرف العنيف في الشعارات والمطالب من جهة، ولرفع مستوى العنف من جهة ثانية"<sup>(2)</sup>. وهذه الفكرة تنسحب على باقي التنظيمات الإرهابية التي تتنازل من بعضها، وتتشكل تبعاً لطبيعة الطرف القائم عند المعتدي والمعتدى عليه، وتتمحور باستمرار حول فكرة الانتماء للخارج الإمبريالي.

ب- أمّا المنصة الثانية فهي المتصلة أساساً بطبيعة بناء النظام السياسي والاجتماعي ومستواه بصورة عامة، وليس هذا فحسب وإنما بطبيعة التأهبات

<sup>(2)</sup> Michel Rimbaud, tempete sur le Grand Moyen-Orient, Ellipses, Paris,p.36.

الكفيلة بنقل مستوى التكوين الراهن إلى مرحلة نمو الطاقة الوطنية باستمرار ودونما توقف أو استهلاك أو مراوحة في المكان، وكذلك في الاستعداد الدائم والكافي لمواجهة التحديات التي تأتي بصورة متبدلة وغير مباشرة في كثير من الحالات. نستطيع أن نلتقط هنا أفكاراً ذات طبيعة تأسيسية قالها الرئيس بشار الأسد لخدمة هذه الفكرة البنيوية: "الأرض والسيادة هما قضية كرامة وطنية وقومية ولا يمكن لأحد أن يفرط بها أو يمسخها"<sup>(3)</sup>. وفي قول سابق للرئيس الراحل حافظ الأسد يقول في معرض تحليله لتنظيم الإخوان المسلمين: "لا شيء أخطر على الإسلام من أن تشوه معانيه ومضامينه وأنت تلبس رداء الإسلام، وهذا ما يفعله الإخوان المجرمون يقتلون باسم الإسلام، يغتالون باسم الإسلام، يذبحون باسم الإسلام، يمدون أيديهم إلى الأجنبي باسم الإسلام وإلى الأنظمة الأمريكية على حدونا"<sup>(4)</sup>.

ت- أمّا المنصة الثالثة فهي التي تتصل بطبيعة المشروع المعادي للوطن السوري والمصطلح ضاغط وجدير بالتداول. هذا العداء هو للوطن السوري، وهذا يعني أن تاريخ هذا الوطن وذاكرته ودوره في المراحل والعصور كلّها، ومواقفه المعاصرة ضد المشاريع الخارجية وفي بناء مقومات الرد على العدوان الصهيوني، إنّما هي جميعاً مواد حية لازمت هذا الوطن والتزم بها أبناء هذا الوطن، وهذا المدى تدرکه القوى المعادية الأجنبية بحسابات مادية ومنفجرة، في حين تبدو هذه العناوين الوطنية والقومية هي مجرد خزان للشعارات، ومنبع للبناء المعنوي الذي يدفع بالتغني إلى مداه الأقصى، ويسهم في تحذير المجريبات والعوامل التي لا بدّ أن تلبّي بقوتها وحيويتها تاريخ هذا الوطن وقوته المتجددة، يقول الرئيس بشار الأسد في لقاء مع اللجنة الوزارية المنبثقة عن جامعة الدول العربية بصدد حل الأزمة

<sup>(3)</sup>- بشار الأسد، خطاب الأسد، دمشق، 2000، أرشيف الرئاسة، وكالة سانا.

<sup>(4)</sup>- سامي كليب، الأسد بين الرحيل والتدمير الممنهج، دار الفارابي، 2016، ص 41 .

السورية: "نحن لا نبحث عن رضا أمريكا... ما بدنا نعمل شيئاً للغرب.. نحن لا يهمننا الغرب، نحن يهمننا الداخل، نحن قوتنا وضعفنا الداخل السوري وليس الخارج، وإذا كنت سأعمل خطوة ولم تأت بنتائج إيجابية فلماذا أعملها؟"<sup>(5)</sup>.

ث- وتبقى المنصة الرابعة وهي التي تستجمع خصائصها وطاقاتها تحت بند ( متلازمة الإرادة والإدارة )، إذ لا يكفي أن نتأكد بأن إرادتنا الوطنية ثابتة وراسخة، فلا بدّ من نقل هذا الثبات والرسوخ إلى مجال الفعل والتفاعل والتأثير المتبادل، باستيعاب حقائق الإرادة واشتقاق أنظمة ومسارات وآليات تؤكد أن هذه الإرادة قادرة على أن تتحول إلى فعل وأداء في الواقع، وبأن هذا الفعل وهذا الأداء إنّما تحيط بهما إدارة منظمة وصاحبة وقادرة عبر التقييم والنقد أن تستخلص العوامل الإيجابية في كل مرحلة وتفصلها عما عداها من الجزئيات الضارة والوجود السلبي المعيق، بما يؤكد بأن الإرادة والإدارة معاً شرط واحد في جزئين، يقول الرئيس بشار الأسد في لقاء مع أحمد داوود أوغلو: "أنا لا أخطط للبقاء رئيساً مدى الحياة، ثم إنني لا أشعر أنني رئيس، بل أشعر أنني مدير مشروع، وهكذا أبني علاقتي الطبيعية مع الناس دون عوائق، وإذا لم تعرف هذا عني، لا تستطيع تحليل ردود فعلي على الواقع"<sup>(6)</sup>.

3. وأما الحقيقة الثالثة فتتجلى في معرفة العمق التاريخي للإرهاب والعدوان بصورة عامة، والتحويلات التي أخذها هذا العامل في مراحل التاريخ كلّها، ويعود بنا الفكر إلى تثبيت نقطتين متكاملتين: الأولى هي متابعة الإرهاب في عمقه التاريخي الزمني، إذ من الملاحظ أن ظاهرة الإرهاب متلازمة بلا انقطاع لحياة الأمم وتشكيلاتها المتحركة على خط الزمن، وأن التجاوب التي صدر عنها الإرهاب عديدة تكاد لا تحصى، وبسبب تداخل هذه الظاهرة مع وقائع التاريخ، والاختلاط

<sup>(5)</sup> - المصدر نفسه، ص 43.

<sup>(6)</sup> - المصدر نفسه، ص 43.

القائم فيها على الادعاءات المحصنة بالحقوق وحرية مصير البشر. الثانية هي متابعة ظاهرة الإرهاب على أنها تقع بين الفعل ورد الفعل، ثم يأتي العامل الحاسم في إشكالية الإرهاب المتمثل في مصداقية الروايات عنها ودرجة الدقة في الإحاطة بها من حيث وقائعها وأسبابها وتداعياتها فيما بعد. وفي الحالات كلها نلاحظ أن المنابع الأساسية للإرهاب تدلُّ على أنها ظاهرة وافدة بالنسبة إلينا في سوريا، وهي تعبير باستمرار عن مشاريع الغزو والهيمنة والنهب الاقتصادي، وتحويل حالة العداء للوطن إلى فعل حاسم لا يمكن إنجازه إلا بالإرهاب، بما يعني الإبادة العرقية والاجتماعية أولاً، وتدمير مصادر التاريخ بأوبده وتشكيلاته ثانياً، وتعميم منهج القتل وسفك الدم ونسف المصالح العامة كأسلوب في تنفيذ مقاصد الإرهاب والإرهابيين ثالثاً، وإلا فإن لنا الحق بأن نسأل: ما معنى أن يتجمع في سوريا أكثر من مئة جنسية وفصيل يحتفلون بالذبح والحرق والإغراق لكل ما طالت أيديهم التي تتلاعب بالصور وتلفيقات المواقع وبأحدث وسائل الاتصال. وبالعودة إلى العمق الزمني التاريخي للإرهاب نجد أن الجماعة اليهودية المعروفة باسم "السيكارين" هي أول منظمة وأشرسها في تاريخ الإرهاب<sup>(7)</sup>.

والسيكاريون نسبة إلى الخناجر الرومانية التي تسمى "الليكا" فقد استعملها اليهود في مذابح تاريخية سرية في وجه الرومان بقصد تطهير أورشليم، وبالمقابل كان الرومان في منتهى الوحشية مع رعاياهم وأعدائهم على حد سواء، وكانوا يتقنون عملية الإرهاب ضد القرطاجيين الذين استسلموا وقبلوا بشروط روما، ولكن الرومان اتخذوا أطفال قرطاجة رهائن ليقوموا بإحراق المدينة. إن الشواهد لا تنضب في هذا السياق فقد قال المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي (Chomsky): "إن القتل الغاشم للمدنيين الآمنين هو إرهابٌ وليس حرباً على الإرهاب، وذلك أن

<sup>(7)</sup> - صحيفة الاتحاد، السيكارين أول منظمة إرهابية في العالم، 30 حزيران 2015.

الحرب على الإرهاب ستصبح في السنوات القادمة مجرد ذريعة لتدخلات عسكرية وارتكابات وحشية ليس فقط من قبل أميركا، بل من كل صوب<sup>(8)</sup>. وفي ذلك كله ليس أماننا سوى العودة إلى تاريخ المجتمعات وليس إلى الأدوات اليومية المستحدثة التي تظهر أماننا بهدف المزيد من الفوضى، وتفريغ الزمان، والوقوع في أفخاخ الاستهلاك، ونهب الثروات والعقول والأوطان، على أن هذا لا يفي حاجات البحث في الظاهرة الإرهابية وعدم الاكتفاء في البحث عنها، وهنا فإن الأقرب لاكتشاف الحقائق هو اعتماد منهج البحث التاريخي السياسي وليس مجرد اكتفاء في التحليل السياسي، ذلك أن البحث يأخذنا إلى الأعماق ويعطينا اتجاهات العمل، في حين يجنح التحليل نحو التعامل مع الوقائع والأحداث من لحظة وجودها، والكيفيات التي سوف تنتج عنها.

### أولاً) - ظاهرة الإرهاب من المنابع إلى العوامل إلى الكيفيات التي اتخذها تاريخياً:

بهذا العنوان تفترض الأمانة العلمية أن نلتقط فاصلتين مهمتين، الأولى هي درجة الترابط والتكامل بين الإرهاب في مراحل التاريخ المتعاقبة، بوصفه لا ينتسب إلى دولة دون أخرى، ولا إلى دين دون آخر، بل هو ظاهرة مستقرة ومستمرة وإن تفاوتت في مستوى الاستقرار والاستمرار، ولكننا في الحالات كلها سوف نحدد مصادر الإرهاب بصورة عامة في المعطيات الآتية:

1. يبدو أن المصدر الأهم يتمثل في طبيعة نشوء الأنظمة السياسية القمعية في المجتمعات الحاضرة لها، أي أن التكوين القيمي والبنوي للأنظمة والامبراطوريات والملكيات يقدم المادة الأساسية لنشوء ظاهرة الإرهاب، لأنها تقوم على أساس الهيمنة المطلقة في الحكم وإخضاع الجميع لرغبات النظام وآرائه، وكذلك في هذا

<sup>(8)</sup> - موسوعة ويكيبيديا (ar.m.wikipedia.or)، وجهات نظر في الإرهاب، تشرين الأول



- التطلع الدائم إلى التوسع والهيمنة ونهب الثروات، والوسيلة في ذلك كله الأسرع والأكثر إنجازاً، هي القتل والتدمير وسفك الدم، أي الإرهاب بصورة عامة.
2. تقدم ظاهرة العقائد الدينية أو الإيديولوجية مادة خصبة تسهم في بناء التعصب الذي يؤدي إلى اعتماد الإرهاب بوصفه وسيلة لإنجاز الهدف. ونلاحظ في هذا السياق أن الإرهاب المعاصر، بل والقديم، هو ذو منشأ غربي، إذ كانت أوروبا بدولها وأنماط حضارتها مصدراً أساسياً للاستعمار والإرهاب المتلازم معه، ولا أحد ينسى الفظائع التي ارتكبتها أوروبا تحت ادعاء الدين المسيحي في الوطن العربي عامة وفي مجازر القدس خاصة. إن المهم في هذا السياق أن ندرك بأن الإرهاب ظاهرة غربية وغرائبية نجد مثاله في إبادة الحضارات الأمريكية بعد غزوها من أوروبا، وقتل ملايين السكان الأصليين، وتحويل فروة الرأس إلى عملة رائجة يتم بها البيع والشراء. ورأينا هذه الظاهرة أيضاً في الغزو المغولي بما يعنيه من إبادة للبشر في الوطن العربي وتدمير لمصادر التاريخ والثقافة في هذا الوطن، وكذلك في وحشية الاحتلال العثماني ضد الأعراق والقوميات كالأرمن والسريان والآشوريين وسكان كيليكيا واسكندرون، والأمثلة لا تنتهي وكلها تصب في إطار وحشية الإرهاب، وكونه غريباً عن حضارات هذه المنطقة. وإذا ما جاز لنا أن ندقق في المصادر الكبرى للإرهاب الراهن فإننا سوف نرى أنفسنا أمام حقائق ثلاث متوازية ومتداخلة، وأهمها ظاهرة التدين الإسلامي وتشويه الإسلام، واختطافه وتزويره ليصبح "إسلامياً"، وإطلاقه كمادة مؤسسة ومحرضة وحامية لأنواع الشذوذ والانحراف الأخلاقي كلها التي يجسدها الإرهاب في هذه المرحلة من تاريخنا وتاريخ البشر.
3. ابتداء ثقافة إسلاموية كمصدر من مصادر الإرهاب...و من الملاحظ أن هذه المادة تقع في منطقة التدين وليس بالانطلاق من النص القرآني أو السنة النبوية، إن منهج التدين أي إخضاع الدين بحقائقه لمتطلبات الحكم ورغبات الحاكمين،

وكذلك لهذا الاختطاف لحقائق الدين لتصبح مادة خادمة للأهداف الخاصة بهذه الجماعة أو تلك، تبرر الأفعال وتتمرر أنماط السلوك ودرجة القتل والذبح في الآخرين، ذلك كله تم السطو عليه بتحريض من الغرب واستجابة من الصهيونية والماسونية، إلى أن تم الوصول إلى هذه المقاصد عبر تحويل الإسلام إلى مادة سياسية وإخضاع نصوصه إلى الخيارات والأولويات التي تثبتها الغرب الاستعماري والصهيونية العالمية، وهنا لا بدّ من تثبيت النقاط الآتية سعياً وراء إظهار خطورة الثقافة الإسلامية:

أ- التدين حالة غريزية في حياة البشر وتأسست عند أتباع الديانات جميعها، والتدين سلاح ذو حدين قد ينتج الإيمان والسلام، ولكنه عندما يوظف سياسياً و يتحول إلى تطرف ينتج بغزارة أكثر العداة للآخر وإقصاءه وإدراجه في قائمة المبدأ اليهودي في التلمود (الأكومينيم) أي الأغيار، وقد صار كل من لا يتفق مع المنهج الاستعماري الغربي الصهيوني هو أغيار، ولا بدّ من التعامل معه على أساس القاتل أو المقتول، فقد قسم جورج بوش الرئيس الأمريكي الأسبق العالم بين محور الشر ومحور الخير بقيادة أمريكا ذاتها، وأطلق معادلة شهيرة تؤكد بأنه من ليس معنا فهو ضدنا.

ب- من خلال التنظيمات الإرهابية المؤسسة مثل التنظيم العام للإخوان المسلمين والحركة الوهابية، أو من خلال التنظيمات الناشئة بعد أحداث الحادي من عشر من أيلول 2001 والعدوان على برج التجارة ووزارة الدفاع في الولايات المتحدة الأمريكية، اشتقت التنظيمات الإرهابية الجديدة من هذا المعنى قواعدها وأطرها وبرامج عملها وأنماط سلوكها، وبذلك اقتطعت من الإسلام الأسماء والشكليات، ثم تسترت وراء لافتاته لتمارس المجازر وسفك الدم بلا تردد، وهذه شكلت النزعة الأخطر في سلوك الإرهاب. كانت الذرائع على الدوام عند تنظيمات الإرهاب ذات غطاء ديني إسلامي بمضمون غربي صهيوني رجعي، ومعلوم أن هذه الاتجاهات

كلّها تتكافل وتتضامن لكي تتجز الهدف الموحد، لعلنا هنا نتذكر ما أطلقه جورج دبليو بوش بعد أحداث أيلول عبر سؤاله المرير إذ يقول: "لماذا يكرهوننا؟"<sup>(9)</sup>، وهو يقصد الإسلام والمسلمين مباشرة، كما أفصح عن ذلك.

ت- تعمق الإرهاب بنموه وممارساته عبر الإفادة من مصادر التكوين التي أشرنا إلى بعضها، ومن حالة الواقع العربي سياسياً واجتماعياً، وهذا هو العامل الأهم في إغراء الإرهاب ومن أوجد الإرهاب في الغزو الشامل لبعض البلدان العربية، وفي مقدمتها سوريا والعراق وليبيا وتونس ومصر واليمن. إننا نلاحظ هذا التكالب الذي أخذ سمة التدفق والتكامل بين مصادر الإرهاب الغربية واستجابات التشكيلات الإرهابية وبعض الشرائح في الداخل الوطني، التي تجذرت كلّها في مسار واحد، وكان العامل الأهم في وحدتها الضعف العربي، ولاسيما تحول حكام الخليج العربي إلى أدوات مغذية للإرهاب ومبرر له إعلامياً، ولاسيما في إطار السطو المنظم على حقائق الدين الإسلامي والقيم والتقاليد السائدة.

#### ثانياً) - المصادر والوسائل والأدوات التي بُني فيها المشروع الإرهابي:

من المؤكد بعد ما تكشف من أحوال هذا العدوان على سوريا العربية أن الغرب الإمبريالي، وهو الوارث والموروث لكل فعل استعماري ولكل نزعة نحو الهيمنة، بشقيه الأوروبي والأمريكي، هو مصدر الإرهاب ذهاباً وإياباً، ولا جدوى من أية متابعة للإرهاب بمعزل عن علاقته العضوية مع هذا الغرب، سواء من حيث نشأة الإرهاب أو تربيته وتنظيمه وإطلاقه فيما بعد في الوطن العربي. إن المسألة في أحد أهم جوانبها تقع في الانحطاط الأخلاقي في الغرب، وهنا يقول تيم أندرسون (Anderson): "تنفّس بسبب أية حرب أكاذيب وضرورات من الخداع على نحو واسع غير أن الحرب القدرة على سوريا بلغت مستوى من التضليل الشامل لم يشهد له مثيل في الذاكرة الحية

<sup>(9)</sup> - عادل مالك، "من ينقذ أميركا من نفسها" (صحيفة الحياة، 11 أيلول 2010).

البشرية"<sup>(10)</sup>، بل إن أندرسون يتعمق أكثر في تثبيت حالة الانحطاط الأخلاقي في الغرب كعامل مؤسس في التطبيقات القتالية والفكرية والسياسية كلّها التي واكبت هذا العدوان، لذا يقول "أريد أن أذهب أبعد من ذلك إلى حد القول إنه في الحرب القذرة على سوريا تخلت الثقافة الغربية بشكل عام عما تبقى من تقاليدھا المتمثلة في المنطق والحفاظ على المبدأ الأخلاقي والبحث عن الأدلة الموضوعية في أوقات الصراع، لصالح تقاليد أسوأ، وهي الامتياز الإمبريالي بالتدخل المدعوم بالتحيز العنصري العميق"<sup>(11)</sup>. وواضح تماماً أن نقطة البداية كانت من هذه الفاصلة الخطيرة، وعلى أساسها تكونت بصورة مضطربة ومتحركة الجيوش الوكيلية في الحالة السورية وتمثلت في قوات مشتركة مؤلفة من الإخوان المسلمين والوهابيين، ومع أن الصراع الظاهري على السلطة بين هذه المجموعات ومموليها إلا أنها تشترك جميعاً في الأيديولوجيا المعارضة للأنظمة العلمانية أو القومية<sup>(12)</sup>.

وفي ثنايا هذا المبدأ الغربي تواترت وتعمقت أدوار الغرب ووظائفه في العدوان على سوريا، وقد كانت افتراءات المجازر التي نسبت إلى الجيش العربي السوري، ومعها التزوير والخداع في قصة السلاح الكيماوي، وهي منهج معتمد ومتعمق باستمرار لدور الغرب في الإرهاب، إذ لم تقف وظائف الغرب السياسية والعسكرية عند حدود تنظيم الإرهاب وتسليمه وتغطيته إعلامياً وثقافياً، بقدر ما يمتلك هذا الغرب من تكنولوجيا متطورة معاصرة، ولكن سرعان ما تحولت هذه الوظائف إلى أدوات لتبرير المشروع الإرهابي وتمريه وتغطية ممارساته التي صارت خطراً على الإنسانية كلّها بما فيها الغرب الاستعماري نفسه.

<sup>(10)</sup> - هو أستاذ العلوم السياسية في جامعة سيدني في أستراليا، وكتابه هو الحرب القذرة على سورية، ترجمة ناهد تاج هاشم، مركز دمشق للأبحاث والدراسات (مداد)، دمشق، 2016، ص 17.

<sup>(11)</sup> - المصدر نفسه ص 22

<sup>(12)</sup> - المصدر نفسه ص 24

وهكذا نشأت الافتراءات التي استقطبت اهتماماً دولياً ومحاولات لتشكيل رأي عام عالمي يقوم على استنهاض العداة ضد سوريا دونما محاكمة أو تقويم أو تبصر. رأينا ذلك في الحادثة المدبرة في الغوطة الشرقية في آب من العام 2013، التي شغلت حيزاً كبيراً من اهتمامات الرأي العام العالمي. على أن الدور الغربي ووظائفه المتجدرة في عمق هذا العدوان يبحث عن إطارين يضيفان على الأزمة أبعاداً أكثر لؤماً وعمقاً ضد سوريا: الإطار الأول، وهو نتاج طبيعي لعلاقة النظام السياسي العربي مع قوى الغرب الاستعماري الكلاسيكية أو المستبدة الآن في سياق الأحداث وتقلباتها، وهو متمثل في إطلاق المهام والوظائف الإرهابية من خلال حلفاء أمريكا في المنطقة، أعني المملكة العربية السعودية و"إسرائيل" وتركيا وقطر والأردن. إن هذا الإطار الموسع هو الذي تعهد بإنجاز مهام التمويل والتدفق الإرهابي والتدخل العسكري المباشر، لا سيما عبر الادعاء بأنها قوى قريبة من الجغرافيا السورية، وأنها على اطلاع عميق وواسع بأن ما يحدث في سوريا هو ثورة شعبية لربما حرب أهلية.

وتشير المعطيات والنتائج كلها التي صارت مفصولة إلى أنّ هذا "الإطار العربي" قد قدم مئات المليارات من الدولارات وعشرات الآلاف من العناصر الإرهابية وبأن الكيان الإسرائيلي دخل في مجريات الصراع بصورة عملية واضحة سواء في الدعم العسكري لفصائل الإرهاب أو التدخل المباشر، ولا سيما في منطقة الجولان أو تزويد فصائل الإرهاب بالمعلومات عن توضع القوات المسلحة السورية كما أنجزت إسرائيل الدور المهم في إنشاء مراكز صحية لمعالجة الجرحى من الإرهابيين وإعادة تأهيلهم لممارسة الأعمال القتالية من جديد، ووصل الأمر إلى حد التداخل العضوي الإسرائيلي مع الإرهاب بصورة علنية، كما نشرت وسائل الإعلام أخبار تبني كبار القيادات الإسرائيلية للمشروعات الإرهابية، وفي مقدمة المسؤولين في هذه القيادات كان دور نيبتيا هو رئيس وزراء العدو الذي قام بزيارات متكررة لجرحى الإرهاب مبدياً ثقته بدور الإرهاب، ومؤكداً تعهداته بدعم فصائل الإرهاب إلى آخر مدى.

ثم جاء دور الإطار الثاني الذي استحدثه الغرب في إطار مهامه العضوية في الإرهاب، وقد تمثل في بناء نهج فكري وسياسي وإعلامي يقوم على التحريض الديني والمذهبي والطائفي، وتصدير كل هذه الوجبات المسمومة كلّها إلى الداخل السوري. والغرب يدرس ويخزن في ذاكرته وسياساته معارف كثيرة عن خصائص الوطن السوري، سواءً التاريخية منها أو الواقعية. كانت هذه التغذية المحمومة وسيلة حيوية ومهمة لمخاطبة الرأي العام السوري على أساس غرائزي، ووظفّت شواهد وحالات وحوادث كلها تدخل في إطار الشحن الغرائزي الذي يقوم على أساس تمزيق وحدة الوطن السوري من الداخل، والأخطر من ذلك استدراج أفراد وشرائح ومجموعات تلقفت هذا الشحن الغريزي، لا سيّما حينما يتلازم هذا الشحن مع مقاصد إسلامية إلى الدرجة التي صوروا الصراع بأنه بين الإسلام وما عداه من الكفار، وبأن كمية القتل والتدمير للآخرين مهما كانت طوائفهم هي امتثال عقائدي وشرعي لأوامر الله، وأنه من يخالف هذا المنحى هو عدو كافر ولا بد من استهدافه، فالمهم هو الشحن الطائفي البغيض الذي رُجّح الإسلام فيه قسراً وعنوة، وهناك باستمرار دعاة ومشايخ يؤدون هذا الواجب الخطير وعميق التأثير.

وكان من مصادر إنشاء المد الإرهابي ووسائله هذا البعد المتصل بطبيعة الواقع السياسي العربي وطبيعة أنظمة مشيخات الخليج بصورة محددة، ولا سيما آل سعود وآل ثاني وآل خليفة وما يتفرع عن هذه الأنظمة من معطيات فكرية وهياكل دينية وأدوار عملية ومعادية لكل ما بحث عنه البشر في التطور والتقدم وبناء الذات وإنجاز المهام القومية، والذهاب بهذه المقومات كلّها إلى الاندماج بالمشروع الغربي الذي مازال يقوم على قاعدتين ثابتتين تاريخياً في سياسة الغرب في المنطقة العربية: القاعدة الأولى هي الولاء المطلق للعدو الصهيوني، وتنفيذ هذا الولاء بمستلزمات بناء كيان العدو على أساس القوة المادية والتطور الاقتصادي والمقدرة على شن العدوان المتكررة داخل فلسطين وفي المحيط العربي. إننا نجد ما يتعلق بهذه المادة في البند الثاني في

الاستراتيجيات الغربية كلّها، وهي التزام وِلزام في سياق واحد، والمسألة هنا تاريخية ومصليحية ومتأثرة أكثر ما يكون في تخلف النظام السياسي العربي، وفي شهية دول الخليج الحاكمة بأسرها للارتباط بالأجنبي البريطاني أولاً والأمريكي رهنأ في مسعى واضح لتأمين نطاق الحيطة والأمان لهذه الكيانات العربية المصطنعة. والقاعدة الثانية ما زالت تؤكد منسوب العداء الغربي المطلق للعرب كوجود وللقضايا العربية الأساسية أو الناشئة، وهذا التوجه يعني بالضرورة استيعاب هذه المراحل كلّها من التآمر الغربي على العرب وقضاياهم، منذ الثورة العربية الكبرى في العام 1916، إلى قيام الوحدة المصرية السورية، إلى حرب تشرين ومن ثم إلى دور المقاومة في انتصارات تموز من العام 2006.

كان المد الغربي يقوم على إجهاض كل تحرك قومي حضاري تقدمي، وكان من متطلبات هذا البرنامج أن يتم التركيز على العلاقات العضوية مع أنظمة الخليج العربي والنظام الملكي في الأردن والنظام الملكي في المغرب، والفلسفة عند الغرب في تبرير هذا التوجه تقوم على فكرتين: الأولى منهما النظرة إلى العرب على أنهم كميات بشرية لا تصلح لامتلاك إرادتها، ولا بدّ بالمحصلة من إطباق السيطرة عليها باستخدام المواصفات والخصائص كلّها التي تؤهل الغرب لهذا المنهج القائم على الازدراء للعرب وضرورات الهيمنة على الكتل العربية، وأما الفكرة الثانية فهي النظرة الغربية إلى الجغرافيا العربية على أنها مساحات واسعة ومتنوعة، وهي مجرد خزانات للثروة الطبيعية الثاوية في عمق الجغرافيا العربية، ولا سيّما النفط والغاز والمواد المعدنية والمنتجات الزراعية، وقائمة لا تنتهي من الميزات الاقتصادية التي لا يجيد النظام السياسي العربي سوى احتجاز مردوداتها لصالح الأسر الحاكمة، وسوى فتح الأبواب على مداها للاستثمارات الغربية التي بدأت بصيغة معاهدات منذ بداية القرن العشرين، ثم استقرت على أنها ملكية غربية، سواء في الحصول عليها، أو في السيطرة على تسويقها، ذلك أن العرب لا يحتاجون من هذه الثروات إلاّ المردود الريعي.

### ثالثاً) - المصدر الإسلامي في التأسيس والتوظيف الاستعماري الإرهابي الراهن:

تبلغ درجة الاختلاط المعتمد أو المتداول بين حقيقة الإسلام، كونه رسالة الله إلى العباد لبناء الحياة السعيدة ولتنشر السلام ولاعتماد نسق العقل والتطور بحيث يأخذ مراه الأقصى، وبين مناهج وطرائق التدين، أي وصول نقل الرؤى الإسلامية الخاصة إلى مجالات العبادة والقيم حداً يصل إلى درجة إفراغ الدين من مضمونه، وتعميقه هياكل وطقوساً ومداخل جزئية لا علاقة لها بالإنسان ودوره ولا ببناء الحضارات وأهميتها، وقد استغرق هذا العامل معظم اتجاهات الحالة الإسلامية الصحيحة ولا سيما خلال النقاط والاتجاهات الثلاثة الآتية:

1. اتجاه تحويل الدين الإسلامي، بكل ما فيه من حقائق وسمو وتقدير للإنسان وحث على بناء الحياة العادلة والمتوازنة، إلى مجرد طقوس وغيبيات هي التي أخذت الفرائض ذاتها إلى الشكليات بعيداً عن الأهداف المنوطة بهذه الفرائض، والطقوس أصبحت مجرد حركات بالجسم أو بالإشارة ودون مضامينها وأهدافها سرعان ما تتحول إلى عامل تحذير ونأي عن الواقع وعن تضامن المجتمعات. ولعله في هذه النقطة استثمرت قوى الإرهاب كثيراً من الأفكار والثقافة الجامدة في إطار تبرير منطق الدمار والقتل وتصفية الآخر من الوجود، بوصفه كافراً وبوصف الإرهاب هو المكلف بنشر وصايا الخالق القائمة على الشكل والطقوس التي جعلوها بعيدة عن القيم وأنماط السلوك المتحضر وأنواع التعاملات الاجتماعية والاقتصادية بين البشر، بالمحصلة فإنها عملية اختطاف إجرامي تحت ذرائع دينية.
2. وفي الاتجاه الثاني جرت عملية منظمة ومتواترة من أجل إلقاء القبض على حقائق الدين السامية، وتحويلها قسراً وتزويراً إلى مجرد وظائف سياسية لخدمة هذا الاتجاه وذلك التنظيم، في مسعى واضح لجعل الدين حافزاً تابعاً من الدرجة الثانية لخدمة المآرب السياسية، الأمر الذي نجد تطبيقاته في التنظيم العام للإخوان المسلمين وفي الحركة الوهابية وفي المشتقات اللاحقة والمتكاثرة والمنتشرة في



أنحاء الوطن السوري وغيره. إن الدين هنا عبر توظيفه سياسياً وعبر التفسير المغلوط بها لنصوصه المقدسة وصولاً إلى الخالق نفسه، ذلك كله قد جعل مجرد أدوات حماية وتغذية وتبرير للمنطق الإرهابي على الطريقة التلمودية، إذ أطلق ذلك الإله يهوى هذه الصلاحيات للمخلوق تحت شعار أن اليهود شعب الله المختار، وأن الله في خدمة هذا الشعب وليس الشعب في طاعة الله، بل أكثر من ذلك: إن الإرهابي في هذا المنحى، وهو يقتل ويجز الرقاب وينهب المال ويعتدي على الحرمات، لا يشعر بتقل الجريمة لأنه على الطريقة التلمودية الإرهابية معفى من المساءلة وتبعات الذنب، والإله في التلمود وعند الإرهاب هو الذي أطلق هذا العفو عن الجريمة والمجرم في نصوص الإرهاب وفي تزوير حقائق الدين.

3. الاتجاه الثالث هو اتجاه الدور التربوي والتلقيني للثقافة الإسلامية المعتمدة، بأن يحل المسلم الفرد والمجموع ومشكلاته وهمومه بطريقة الانكفاء والانزواء والتسليم للشروع والأشرار، بكل ما يلحق بالإنسان من موت وتخريب واحتقار لكرامته وقدسية وجوده كما أرادهما الإسلام. وهنا استخرجت ثقافات هجينة، وتهيأ لهذه الثقافات دعاة وأئمة أغرقوا الإسلام بتفاصيل كهنوتية كان من شأنها أن تحول كل مفردة إسلامية من الفرائض في المجالات الإيمانية الرحبة والتعاملات، إلى مجرد قنوات تفرغ العقل والصبر والجهاد والعلم من مضامينها، لتحولها إلى عوامل للاستكانة والتسليم بالأمر الواقع، حتى ولو كان هذا الأمر فيه نفس الإسلام وتدمير نسب كثيرة من البشر. إن هذه المعالم الهمجية والقاسية كلها قد انعكست في حال المسلمين، ولامتست حدود تغيير النصوص المقدسة في الإسلام، وهذا ما يدل عليه حال المجتمعات الإسلامية على وجه الكرة الأرضية الآن.

**رابعاً) - إطلاقات مكثفة على حال المجتمعات الإسلامية:**

هناك مؤشر في الوطن العربي يؤكد أن أكثر من مئة مليون شاب هم في منطقة العوز وتحت خط الفقر والبطالة، وهذه المعطيات الصعبة هي التي اجتذبت إليها المناهج الإرهابية بوصفها مناخاً صالحاً لنشر الإرهاب وتعميق تزويره المتعمد. وواضح أن هناك حاجات هي التي تنتظم هذا الواقع الإسلامي ومنها الحاجة للهوية، والحاجة للحرية، والحاجة للأمن والاستقرار، والحاجة لمواصفات الحياة الطبيعية كالعمل والتعليم والصحة وسواها. وهنا بدأ الاشتغال الإرهابي باستثمار المناهج الموضوعية عند الغرب، التي تقوم على البحث والدراسة وعلى استخراج نظام الأولويات من الواقع ذاته، ومن ذلك على سبيل المثال:

1. تعميم نزعة التشكيك بالقناعات المستقرة عند الناس وتعميقها وخاصةً في توظيفها في الجانب السياسي.
2. البحث الدائم عن بناء منظومات فكرية عن المجتمع والسياسة، وتحويل هذه المنظومة إلى قناعات فكرية لا بد أن تغلف بغلاف ديني إسلامي لتبدو المسألة كأنها دعوة إسلامية، وفي الميادين القتالية تبدو كأنها جهاداً في سبيل الله .
3. تشويه مسيرة العلم والعلماء ممن ينطلقون من الإيمان والتقوى وممن هم بعيدون عن الفكر الإرهابي، والعمل على تمجيد أسماء وشخصيات معاصرة هي من صناعة الكفر والتطرف وصياغته، ونقل مفاعيل هذا الاتجاه إلى الحالة العسكرية القتالية في الوقت ذاته الذي لا بدّ فيه من تشويه الرموز الفكرية الإسلامية المتتورة أو هدمها، والتي شكلت في كثير من نماذجها ملاذ أمان للحقيقة الإسلامية، ومنصة أمل للتطلع نحو التطور والتفتح والانطلاق من النظرة الإنسانية العالية كما أرادها الإسلام، وخاصةً من خلال عدّ الدين صلة عمودية بين الخالق والمخلوق والدين وجمعاً للبشر على تنوع ثقافتهم وعقائدهم ودياناتهم، فذلك هو الخط الأخلاقي للإسلام أساساً.

إذا كانت المسألة على هذا النحو من المنهجية فإنه لا بدّ من النسق الثاني الذي يحيط بهذه الانحرافات وبهذا التزوير للإسلام، فقد كانت هناك نظرية لطالما أطلقها بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)، مستشار الأمن القومي الأمريكي والرجل المهم في مرحلة الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، إذ يقول: "لا بدّ أن تترك المعركة للمسلمين يخوضونها باسم الجهاد الإسلامي ضد الإلحاد المادي، وأن تتكفل أمريكا بتمويل هذا الاتجاه" (13).

وفي الذهاب والإياب سوف نرى أن القنوات تتكفل بتحريك هذا الاتجاه، أعني خلق التناقض والمعارك الهامشية في المجتمعات الإسلامية أولاً وتطوير رد الفعل الغرائزي فيها إلى مرحلة الاقتتال بل الإفناء الكامل، بالاعتماد على الثقافة الإسلامية الوافدة كالوباء والمنتشرة كريح السموم. كان مستوى الوعي الإسلامي في المجتمعات غائباً تماماً أو متدنياً إلى حدٍ خطير، وهذا الوعي مخطوف لصالح طقوس وغيبيات وحركات اعتقادية قادمة من العتمة ومن الزواريب، ومن مشاهد الكره لكل ما تتطلبه الحياة في بناء ذاتها، كما أمر بها الإسلام الحنيف والأديان السماوية عموماً، وفي هذا السياق ظهرت العولمة في توجيهها الخطير، وهي نتاج غربي مغلّف بالسموم والهموم، وكان في خدمة هذه العولمة، وخاصةً في إطار عدّها الإسلام خطراً داهماً ( فوبيا الإسلام) قنوات ومنظمات فاعلة ومنتشرة على المستوى العالمي، ومنها منظمة التجارة العالمية، والمؤسسات النقدية العامة والخاصة ومنها البنك الدولي للإنشاء والتعمير، والشركات العملاقة متعددة الجنسيات.

من هنا برز إلى التداول العلمي والفكري والعسكري والسياسي هذا الاتجاه في بناء منطق التطرف، وهو الذي يؤسس للتكفير ولممارسة الإرهاب في قتل الآخر وتدمير ذاكرة الشعوب التاريخية والحضارية. وفي سبيل إنجاز هوس التطرف هذا كان لا بدّ من

(13) - محمد حسنين هيكل، "دفاتر الأزمة" (جريدة السفير، 2 شباط 2002).

الخروج السافر على القواعد الفكرية والقيم والمعايير والأساليب السلوكية الشائعة في المجتمعات، وهكذا تمّ بصورة متعمدة إدماج عناصر الشذوذ في منظومة واحدة، وكان لا بدّ من محاولة إفراغ الإسلام من مضامينه وحقائقه إلى درجة التفكير بافتعال إسلام أمريكي وصهيوني يناسب الحال القائم، مع الحقائق المفتعلة التي عمّقت كبدائل عن الحق والعدل والمساواة وبقية المبادئ التي اشتهر بها الإسلام، مع استثمار قوة النفوذ المالي والسياسي للقوى الغربية والصهيونية. وبعد ذلك أُدخِلَ العنصر الأخطر من خلال استثمار تكنولوجيا العصر ووسائل التواصل الاجتماعي لإنتاج المحطة الراهنة التي تعتمدها الجماعات الإرهابية المتطرفة، والتي تختلف في حقائقها عن أي جريمة وإرهاب سابق في مراحل التاريخ كلّها، في الطرائق والأساليب مع أنها جميعاً تمارس الجريمة قديماً وحديثاً باسم الإسلام، وتحت الراية السوداء التي صُمِّمَتْ فكراً وسلوكياً لخدمة هذا الخط الذي من شأنه أن ينسف الإسلام في أصوله، ويترك المجال للشظايا المتناثرة.

#### خامساً) - معطيات العصر الأساسية في بناء المنظومة الإرهابية:

صار المصطلح المكافئ للحالة الإرهابية واضحاً، أي أن الإرهاب هو منظومة نوعية بمعنى انطلاقها من عوامل عميقة، ومن مخططات وسياسات دول لها خبرتها في قهر إرادة الشعوب الممثلة بالغرب الاستعماري وملحقاته في المنطقة، وانتشر مصطلح المنظومة انتشاراً أفقياً بمعنى اعتماده على قوى في المركز، وأنظمة وتنظيمات في المحاور وفي الاتجاهات كلّها جغرافياً وديموغرافياً، وقد تهيأ لهذا الانتشار الأفقي وسائل وأدوات بعضها كلاسيكي وبعضها الآخر هو من منتجات نظام العولمة المذكور، وفي عمقه ثورة التكنولوجيا الصناعية بما فيها ثورة الاتصالات والتواصل الجماعي والاجتماعي. وإذا كان هذا التطور هو من خصائص الغرب بصورة أساسية، من حيث مادته العلمية ووظيفته في الاستعمال، فقد أعطيت هذه الخصائص إلى المنظمات الإرهابية، ومعروف حتى الآن أن الجماعات الإرهابية هي من أوائل المجموعات الفكرية التي دخلت العالم الإلكتروني حتى قبل ظهور شبكات الإنترنت، وهذا ما تكشف عنه

الوقائع ومستودعات الأسلحة الإرهابية وما احتوته من أنماط مختلفة من تكنولوجيا الاتصالات في أرقى وأعقد صورها، وهنا نشير إلى نقطتين متلازمتين ومهمتين:

1. الأولى هي هذا الترابط العضوي اللحظي والمتطاوّل زمنياً بين قوى الاستعمار الغربي وتنظيمات المجموعات الإرهابية، وعلى أساس من هذا الترابط نلاحظ هذا المد الذي لم ينقطع لتزويد المجموعات الإرهابية بمعطيات وشبكات التواصل الاجتماعي وثورة تكنولوجيا المعلومات، وزج هذه المعطيات الخطيرة في الاستثمار الميداني مباشرة، وقد أثر هذا المنحى في سير المعارك، ممّا قدم قوى الإرهاب على أنها قوية من جهة، وعلى أنها قادرة على التحرك لمواجهة المد العسكري الوطني السوري من جهة أخرى.

2. الثانية هي أن هذا الترابط العضوي قد افترض، عبر مادة ثورة الاتصالات، أن تنشأ علاقة تكاملية ولوجستية بين طرفي الإرهاب، أعني القوى المؤسّسة للإرهاب والأذرع المنفذة له، وهذا ما اقتضى إنشاء غرف عمليات مشتركة على أعلى المستويات، وتضم ضباطاً وخبراء من أمريكا وفرنسا وبريطانيا والكيان الإسرائيلي ونظام آل سعود وقطر وتركيا، فضلاً عن ممثلين عن التنظيمات الإرهابية الأساسية والفرعية. وقد تجلّى هذا الأمر في غرفة العمليات "موك" في الأردن وغرف عمليات أخرى في كل من تركيا وإسرائيل والسعودية وفي الدول المجاورة مثل قبرص، وفي القواعد الأمريكية والغربية المنتشرة في المياه الدافئة قريباً من ميادين المعارك وساحات القتال.

على أننا أمام فكرة مازالت تؤسس لاتجاه التعامل الإرهابي مع تكنولوجيا العصر، هذه الفكرة تؤكد أن مشاريع الإرهاب تتماهى تماماً مع مشاريع الدول المؤسّسة للإرهاب، لذا نجد بأن التنظيمات الإرهابية لا تترك أية وسيلة للوصول إلى التأثير في الجماهير بقصد تبرير العمليات الإرهابية وتسويغها، والترويج للفكر الديني الذي تتبناه قوى الإرهاب عبر التوظيف العاطفي الذي يُغدُّ من أقوى الحجج الواقعية.

لقد استثمرت ثورة الاتصالات على نحو معمق ومتكامل، وبناءً على استخراج الوظائف العميقة لهذه الثورة من خلال خصائصها وقوة تأثيرها وسرعة انتشارها، والمعروف أن سلطتي الصورة والكلمة السريعة أصبحتا مالكتين لقوة الغزو وسرعته، وخاصةً من خلال مجانية النقل وهذا ما أدى إلى الانتقال من عصر السرعة الذرية إلى عصر السلعة أو التعداد الرقمي المزدوج، أي أننا في العالم كله أصبحنا أمام ظاهرة التنوع اللانهائي، وقد كان هيربرت ماركوز (Marcuse) في طليعة العلماء الذين قالوا بالتماثل والأحادية والتشابه<sup>(14)</sup>، وهكذا تحرك الإعلام ليصبح على ضفاف المقاربات في ظل العولمة المغرضة، خاصةً في ظل التوجه المحسوم للاستراتيجيات الإعلانية في الطغيان على الحاضر، وفي الصراع مع الأشكال الاتصالية الأخرى، وذلك كله كان يتفاعل إلى قواعد نظرية ودراسات تثبت أن الغرائز تندفق في سلوكيات البشر في مناخ الحروب والموت المجاني، وقد استخلص كثير من تجارب اسبانيا في الحرب الأهلية وكوارث ما حدث في العراق وليبيا واليمن، ليكون ذلك شاهداً على تدفق الوعي الغريزي.

وهنا يتطلب البحث أن نتابع خصائص التواصل الاجتماعي بأهميته وما يحيط به من ظروف ومناخات، لنكتشف المدى العميق الذي أسهم كسلاح فعال وضع تحت تصرف الإرهاب والإرهابيين، وثمة نقاط بذاتها في هذا المنحى :

1. لا توجد رقابة جديّة أو قانونية منظمة على أشكال الاتصال والتواصل كلّها بين طرف وآخر وبين الأطراف جميعها.
2. تحميل مضامين التواصل الاجتماعي في مواقعها كثيراً من موضوعات التكفير ورموزه مع تلازمها بخطاب تحريضي مدروس ومبرمج وجذاب.
3. إن ميزة التواصل الاجتماعي ميكانيكية ولا تعطي أهمية للبعد الأخلاقي؛ وهذا ما أهلها للانتشار باللغات كلّها والعمل في ميادين الثقافات كلّها.

<sup>(14)</sup> - هيربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، 2004.

4. إن التواصل الاجتماعي شكل استجابة لإقبال الشباب على هذه الوسيلة، فكان انتشارها يشبه انتشار النار في الهشيم كما يقال.

ومن هنا كان من نتائج تداول وتناقل الأفكار المغلوط بها والمسمومة أن يحدث هذا الاختلاط المتعمد في المفاهيم والخلاصات، وأن تتداخل المسارات التي يصعب العزل فيها بين قوى الشر ومقاصد هذه القوى، والكيفيات التي لا بدّ أن تنطلق من قوى الخير للإحاطة بهذا المد العاتي للإرهاب، بسلاحه الإلكتروني الوافد إلى الصراع بمعدلات شيطانية. فقد استُخدم العديد من المصطلحات والمدلولات دون معرفة معناها الحقيقي أو سبب استخدامها، خاصةً من خلال الأطر المطاطية، التي ساعدت في مهمة انتشار التطرف وتغذية الأحقاد الطائفية وتزوير عناوين إسلامية كثيرة كان في مقدمتها عنوان الجهاد الإسلامي، وعنوان النظرة إلى المرأة، وعنوان آخر هو تكييف القتل على أنه استجابة لإرادة الله، وممر آمن وحاسم للذهاب إلى الجنة الموعودة، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. على أن هذا الموضوع الذي يستغرق تيار العلاقة الثلاثية ذات المنشأ العضوي وذات التأثير العملي بين مصنعي الإرهاب وقوى الإرهابيين وتنظيماتهم، ونتائج هذا السلاح الفتاك وتأثيراته، في حالات الصراع بصورة عامة وفي ميادين القتال على وجه التحديد. ذلك كله لا يعطينا المدى لكي نسلم بالأمر الواقع معتقدين أن الممرات سهلة وأمنة من التكنولوجيا المصممة لقهر إرادة الشعوب وخفض مستوى وعي الشعوب نفسها وتعاملها مع هذا الواقع المفاجئ في مسلسل الصراع. إن ثمة مناطق وزوايا و منافذ من شأنها أن تحيط بهذا السلاح وتظهر عيوبه، ومن ثمّ تجمد امتداداته وتداعياته وتقطع درجة تأثيره في نتائج المعارك في الصراع كلّه، وحول ذلك توجد ثلاثة عوامل أساسية:

1. إن المدى الزمني والتفاعلي في هذا السلاح له عمر محدود، ولا سيما أن اشتعاله في مناخ التزوير وفي عقدة التوظيف الكيدي ضد العرب والمسلمين لن يذهب باتجاه تحقيق غاياته الأساسية، فهناك وقائع ووثائق وهناك رد على التأثيرات

الميكانيكية لهذا السلاح، التي تتشكل في أساسها من درجة التضحيات في الصراع وقابلية الكثيرين للبحث العالمي عن حقيقة الادعاءات والشائعات والأفكار المسمومة التي يطرحها الإرهاب ومشغلو هذا الإرهاب. فقد أسهم إعلام التواصل في تدبيح مظاهر ومناظر من قبيل الانهيارات المسبقة للنظام السياسي، كما حدث في ليبيا ولعمليات التزوير في مسألة السلاح الكيماوي الذي أُنتِجَتْ قصصه على القد والمعالم التي تشغل عليها الدراما عادة، ومثال ذلك ما حدث في الغوطة الشرقية وفي خان شيخون وفي خان العسل قرب حلب عام 2015، وقد تكشففت مستويات التزييف والتزوير كلّها التي تناقلتها وسائط التواصل الاجتماعي.

2. لم تعد المسألة مستباحة إلى حد مراعاة النوعية في استغلال القوى المعادية لثورة الاتصالات، وهنا ظهرت دول ومنظمات وقوى وشواهد كلها تقف أمام همجية هذه الادعاءات، وكان لروسيا الاتحادية الدور البارز والأهم في فضح هذا المد الإرهابي بالوسائل التكنولوجية ذاتها، وروسيا الاتحادية دولة عظمى تمتلك وسائط الرصد والفرز والتحليل العلمي تكنولوجياً وسياسياً ومعرفياً، وهذا ما تجلّى في اتخاذ المواقف المناهضة للتزوير الذي كان الهدف منه هو التمهيد لقرارات عدوانية على الوطن السوري. كان هذا الرد منظومة تكنولوجية وسياسية تعتمد على العلم والوثائق والخبرات في إثبات خطر هذا التسويق الإرهابي عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

3. وفي منحى متصل قدم الوطن السوري توجهاً متكاملًا يقوم على الصراحة والواقعية المطلقة، ولا سيّما في فتح الآفاق أمام اللجان المتخصصة على المستوى الدولي لدراسة الادعاءات الغربية الإرهابية الموجهة ضد القوات المسلحة السورية، وكان لدرجة المصادقية العالية التي بنتها السياسات السورية، على قاعدتي العلم من جهة والأخلاق من جهة أخرى، أهميتها الكبرى في إجهاض مسيرة التشويش والتزوير، وكان أن أدى هذا كله إلى تشكيل الخبرة الوطنية السورية وفي المصدر



ذاته أي وسائل الاتصال والتواصل، وتقديم الشواهد والشهادات كلّها على أن الوطن السوري يقاتل بشرف ويمارس العمل السياسي بشرف أيضاً، وأن لديه من المناقب والقيم والأخلاق ما يرفض أصلاً اللجوء إلى الأسلحة المحرمة دولياً وأخلاقياً.

### سادساً) - لماذا سوريا بالذات:

هذا واحد من أهم المحاور المركزية التي تكشف كثيراً من حقائق العدوان الإرهابي على سوريا. والمنهج في تفسير الصراعات الكبرى في التاريخ يؤكد بأنه لا بدّ من استيعاب نقطتين في تفسير الأحداث: الأولى هي معرفة طبيعة القوى المعتدية وصاحبة المشروع المترابط والمتكامل في إحداث الأزمات، وكذلك تبين طبيعة هذه القوى من حيث مشاريعها السياسية وتحديد قائمة الأعداء المفترضين أو القائمين فيها بقصد التعامل معهم سياسياً وعسكرياً وإعلامياً. والنقطة الثانية هي التي تتمثل بوجود هدف أساسي واستراتيجي في المشروع المعادي. ونلاحظ من اجتماع النقطتين أن الجمهورية العربية السورية هي المعنية بحروب الآخرين عليها، وأنها هي الهدف المركزي الذي لا بدّ من تفرغه من مضمونه أو تدميره أو أخذه إلى مسارات يريدها المعسكر المعني بعنائه لسوريا، وهكذا يجب علينا أن نعمق الاستقصاء في محورين:

1. محور القوى المعتدية بالتشكيل الذي يضمه هذا المحور، وبالثقافة التاريخية التي تضبطها حالة العداء لسوريا في هذا المحور، وكذلك في درجة الترابط بين قواه المعادية لسوريا، وهي التي تتكون أصلاً من الغرب الإمبريالي صاحب المشروع التاريخي في هذه المعاداة، ولا سيما بدءاً من استقلال سوريا في العام 1946، وكذلك من أنظمة صممت على عجل، وبما يخدم الهدف الغربي الأوروبي، ومن ثم الأمريكي في مجمل الصراعات القائمة في الشرق الأوسط، وكان لا بدّ من

اشتقاق أذرع للميدان، وهي هنا مجموع التنظيمات الإرهابية التي استغرقت القوى المذكورة زمناً طويلاً في بنائها وتسليحها وإطلاقها على الوطن السوري.

2. أما المحور الثاني فهو سوريا العربية ذاتها التي تحولت إلى عقبة عميقة في وجه المشروع الامبريالي الصهيوني الإرهابي، وأنها استكملت في بنائها مقدمات ومقومات القوة الذاتية من جهة، وخاصة أن تكون موثلاً لكل حق عربي مطارد أو مستبعد، كما تكون مركزاً لإطلاق الأشعة اللازمة كلّها لإبقاء القضايا العربية في التداول، وللإسهام في المدى القومي بهذه الأدوار كلّها في فلسطين خاصة، وفي الأردن والعراق ولبنان وفي كل موقع عربي يعيش أزمة التآمر عليه من الخارج. وهنا نستطيع أن نستشهد بما قاله أندرسون: "يمكننا أن نغزو استهداف سوريا إلى دورها المركزي في الحروب العربية الاسرائيلية وخاصة حروب عامي 1967 و1973، بما يشكل صراعاً إقليمياً مشتركاً ضد الدولة الصهيونية التوسعية ومن ثم كان الدعم السوري لثورة إيران في العام 1979. وإذا عدنا إلى عام 1980 في عهد إدارة الرئيس الأمريكي جيمي كارتر نلاحظ أن واشنطن كانت تبحث عن تغيير النظام في دمشق، وقد حثّت برقية أرسلها مجلس الأمن القومي إلى وزير الخارجية بريجنسكي (Brzezinski) على إجراء دراسة متناسقة مع الشركاء الأوروبيين والملكيات العربية بتحديد الأنظمة البديلة الممكنة لحكومة الرئيس حافظ الأسد"<sup>(15)</sup>.

كان من الطبيعي أن يعتمد المشروع الأمريكي على قوى يمكن إطلاقها في الداخل السوري، ومن هنا جاءت أهمية أدوار الإخوان المسلمين في المعارضة السورية التي يعود تاريخ تعاونها مع القوى الخارجية إلى أربعينيات القرن الماضي، ومعلوم تماماً أنه

(15) - أندرسون، الحرب القذرة على سورية...، ص 35.

تم القضاء على هذا الدور للإخوان المسلمين في سوريا مع كونه مدعوماً من أمريكا والسعودية وصدام حسين والنظام الأردني كما يؤكد أندرسون ذلك.

وفي تحليل له كتب رامي خوري يؤكد بأنه لو تم عزل سوريا، كما جرى في العراق وليبيا، كان يمكن لهذه الخطة أن تمضي قدماً، لكن الجيوش الوكيلة من دول الخليج والنااتو اصطدمت بمحور المقاومة ومعه بعض الحلفاء الأقوياء. كما يؤكد الفكرة ذاتها أندرسون<sup>(16)</sup>. وإذا ما ذهبنا إلى تقنين الموقف الأمريكي الصهيوني واختصاره منذ الغزو الأمريكي للعراق، كما ورد في مطالب كولن باول من الرئيس السوري بشار الأسد<sup>(17)</sup> نجد النقاط المهمة الآتية التي تمثل المطالب الأمريكية الإسرائيلية في سوريا:

1. أن تقطع سوريا علاقتها بالثورة الإسلامية في إيران، وأن تمتنع عن تقديم أي دعم مادي أو سياسي لإيران تحت أية شروط معلنه أو مضمرة.
2. أن تبدي سوريا قابليتها الأكيدة بإجراء مباحثات مع الكيان الصهيوني، وبالمحصلة أن توقع صلحاً عبر معاهدات مشهودة دولياً ينهي حالة الصراع مع الكيان الإسرائيلي انسجاماً مع ما حدث في مصر والأردن والسلطة الفلسطينية.
3. أن تمتنع سوريا عن دعم القضية الفلسطينية خاصةً من خلال علاقة سوريا بالتنظيمات الفلسطينية الكبرى، فتح وحماس والجبهة الشعبية وبقية القوى الفلسطينية المقاومة للمشروع الإسرائيلي، وأن تغلق مكاتب هذه المنظمات في دمشق.
4. أن تفك سوريا علاقتها بحزب الله في لبنان، وأن تمتنع عن مدّ المقاومة الوطنية والإسلامية بالدعم المادي والمعنوي وبالسلام والمعلومات، وأن تمتنع عن التدخل

<sup>(16)</sup> - المصدر نفسه، ص 40.

<sup>(17)</sup> - محضر جلسة الأسد مع باول، 3 أيار 2003 (انظر المحضر في: كليب، الأسد بين الرحيل والتدمير...).

- في الشؤون اللبنانية وصولاً إلى ضرورة انسحاب سوريا من لبنان بصورة كاملة ولا سيما بعد اغتيال رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان المعروف.
5. على سوريا أن تعيد النظر في عناصر بنائها الداخلي ولاسيما في مسائل الإعلام والثقافة والتربية القومية بما يعني سحب كل مصادر تأكيد الحقوق المشروعة للعرب عامة وللفلسطينيين خاصة.
6. أن تقبل سوريا بإعطاء المشروعية لدور الولايات المتحدة في العراق بعد غزوه في العام 2003، وأن تمتنع عن استقبال رموز المقاومة العراقية في سوريا، وكذلك أن تمتنع عن تقديم ما يلزم من الدعم العسكري والسياسي لحركة المقاومة الناشئة في العراق بعد احتلاله من قبل أمريكا.

أي أن سوريا مطالبة، بمجمل هذه البنود وملحقاتها في الصياغات السياسية الأمريكية وفي مواقف واشنطن المعلنة والمضمرة ضد سوريا، بأن تخرج من جلودها وتلغي حقائق وجودها، وتتكون وتتلون تبعاً للمنهج الأمريكي السياسي، وأن تتضوي في حيثيات مشروع الشرق الأوسط الجديد كما طرحته كونداليزا رايس (Condoleezza Rice) وزيرة خارجية أمريكا في أثناء العدوان الإسرائيلي على جنوب لبنان في تموز من العام 2006. إذاً كانت سوريا العربية تحتضن البداية والنهية لمفاصل العدوان الإرهابي عليها ولمراحل نموه وانتشاره، وواضح تماماً أن هناك ثلاثة مقومات أساسية مؤرقة للسياسات الغربية الاستعمارية وخطرة على المشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي، وهذه المقومات تتوزع في البنود الآتية:

أ- سوريا الوطن والتاريخ والمواقف مازالت تحتفظ بأصول بنائها وبقيمها وتقاليدها في التصدي للتآمر والعدوان على العرب وقضاياهم، وشكلت هذه الحقيقة منهجاً تاريخياً استقرت فيه المناقب والخصائص، وتعمقت فيه حالات المواجهة السورية لكل عدوان على العرب وقضاياهم، وقد رأينا ذلك بدءاً من مرحلة الاستقلال السوري في عام 1946 إذ تجلت تيارات العداء لسوريا في الانقلابات العسكرية

المرتبطة بالغرب ومشاريعه ومصالحه في سوريا، ولا سيّما انقلاب سامي الحناوي وحسني الزعيم وأديب الشيشكلي. كما كان هذا الهيجان الغربي الصهيوني في إنتاج الأحلاف والمعاهدات المعادية لسوريا وللوطن العربي عموماً، ومنها حلف بغداد والحلف الإسلامي وحلف المعاهدة المركزية، وقد استوعبتها سلسلة ونظريات كثيرة كلها تصب في إطار حصار سوريا وإخضاعها للمشروع الغربي الصهيوني الذي ما انقطع ولا انكفأ عن استهداف سوريا.

ب- مازالت سوريا هي القوة الرئيسية في مواجهة المشاريع العدوانية والاحتلالية في العصر الحديث، وكانت باستمرار تؤسس استراتيجيتها على قاعدة الخط التاريخي للأمن القومي العربي، وهو الممتد من اليمن إلى العراق إلى مصر ومن ثم إلى فلسطين استقراراً في دمشق، ولذلك رأينا أن المشاريع الاستعمارية في الربع الأخير من القرن العشرين سعت لقطع هذا الخط بإخراج مصر عبر مؤامرة كامب دايفد، ومن ثم إخراج العراق في الحرب العراقية الإيرانية التي استغرقت ثماني سنوات، وبعد ذلك في إثارة الفتن الطائفية والصراعات في لبنان الشقيق، ومن ثم اعتقدت القوى المعادية لسوريا أنها هيأت الميدان السياسي والعسكري للانقضاض على الوطن السوري، وتغيير معالمه وتدمير مواقفه ومهامه الأساسية.

ت- مازالت سوريا العربية تبني أداءها الوطني العام على أساس المعالم القومية ومصالح الأمة العربية في المجالات كلّها، ليس العسكرية فحسب وإنما الثقافية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وبهذا المعنى تحولت سوريا إلى بؤرة حفاظ على القضايا العربية وعلى الحقوق العربية، وهذا مكن التصادم مع السياسة الأمريكية والغربية عموماً التي تقوم على قاعدة الولاء المطلق للكيان الصهيوني والعداء المطلق للعرب وقضاياهم، إن مجمل هذه الملامح كانت تحاط بمشاريع غربية صهيونية رجعية على شكل معارك لم يشهد لها التاريخ القديم والحديث مثيلاً في همجيتها.

**سابعاً) - منظومة التكامل في الأهداف والوسائل التي انتظمها العدوان على سوريا :**

يختص هذا العنوان بموجبات البحث عن طبيعة القوى المعادية للوطن السوري من جهة، وكذلك عن المراحل والمناخات التي تدرّج فيها هذا الهيجان الإرهابي على سوريا من جهة أخرى، والمسألة في غاية التعقيد والصعوبة والتداخل، ذلك أن هذه الحرب على سوريا اتسمت بأربع خصائص أساسية هي التي وضّحت خط التواصل وخط التكامل في منظومة الفعل الإرهابي عليها، والأهداف المنوطة بهذا الفعل، ونظام الأولويات في تدرّجات الحركة الإرهابية من الخارج إلى الداخل، ومن الادعاء السياسي والشعبي إلى العمل المسلح بصورة عميقة وكثيفة.

1. الخاصة الأولى كانت تتمثل بوحدة المصادر المعادية لسوريا وكان الترابط في أطر هذه القوى ومواقعها بنيوياً وعضوياً. صحيح أنه استغرق زمناً طويلاً وتضحيات مؤلمة كثيرة حتى لحظة انكشافه، لكنه في النهاية توّضّحت الاصطفافات وصار العمل على المكشوف ولا يحتاج دوماً إلى ذرائع لإنجازه. كانت حركة العدوان على سوريا قد تمت من الغرب الإمبريالي بشقيه الأوروبي والأمريكي، وبحلقة من الأنظمة في الوطن العربي والإقليم قادها ومولها نظام آل سعود ونظام آل ثاني في قطر ونظام أردوغان في تركيا عبر حزب العدالة والتنمية، وكيانات سياسية مثل النظام الهاشمي في الأردن والنظام الملكي في المغرب، ثم تطور هذا التكامل لإنتاج أذرع إرهابية على هيئة جيوش غازية من منابع التطرف والإرهاب في الكرة الأرضية كلّها، على أن حلقة الربط الترابط بين هذه الأطوار كلّها كان يتمثل في دور الكيان الإسرائيلي الذي ما لبث يقود بشراهة قصة الحرب على سوريا والتنسيق بين الدول والتنظيمات في إنجاز هذه الحرب الإرهابية.

2. أمّا الخاصة الثانية فكانت تتوطد من خلال واقع منتظر ومدروس يحرك موجبات الفتنة من خارج سوريا وعلى أطرافها إلى الداخل السوري، وهذه هي المرة الأولى

التي ينتقل الصراع من (على سوريا ) إلى (على سوريا وفي سوريا)، وكان ذلك يحتم إطلاق المشروع العدواني بكامل طاقته، والاعتماد على نظام المرتزقة الغزاة من الخارج مع نظام استهداف الفتنة في الداخل السوري، عبر شرائح وأفراد معدين سلفاً وقد خضعوا لضغط الإغراءات، وسرعان ما اندمجوا في مسار القتل والتدمير وسفك الدم.

3. الخاصية الثالثة تُختصر بأنه كان لابد في المشروع المعادي من أن يستغرق البنية الفكرية الثقافية في عمقها الديني الإسلامي. وهي بنية مستحكمة من جهة، ولها منسوب إشكالي من جهة أخرى نظراً إلى قوة الخلط بين القيم والطقوس وبين النصوص المقدسة والتأويلات المشبوهة، حتى وصلت إلى حد إنتاج إسلام غيبي من جهة وذي صبغة أمريكية إحادية من جهة ثانية. لقد أخذ هذا البند في التهيج الثقافي الديني مداه إلى أبعد حد، وتم بث المصطلحات القائمة على التحريض الطائفي والاثني والديني والمناطقية والعشائري في مسعى واضح لتكريب وافتعال نمط العلاقة العضوية بين الإسلام المزور وضرورات تدمير سوريا.

4. ثم بدأ دور الخاصية الرابعة وهي التي تبنت نسق التركيز على الثغرات ونقاط الضعف في البنية السياسية والتنظيمية للوطن السوري، والمستقرة منذ أربعة عقود، كان أبرز العوامل المساعدة في هذا المنحى يتمثل في الآتي:

أ- الخلط المتعمد أو التطبيقي بين الاستقرار والركود، وهذا مدخل مهم أنتج كثيراً من مساحات الترهل ومناطق الضعف والخاصرات الرخوة. لقد تم إقصاء الفكر التجديدي وما يلزمه من نقد وحوار لبحث عن صيغ حيوية أكثر إلى أن انتشرت مساحة الركود في أنحاء الوطن السوري.

ب- كانت القاعدة النظرية في الفكر السوري الذي مثله الرئيس الراحل حافظ الأسد تقول : إنّ "الحياة ليست قالباً جامداً نصبه أو نصب عليه إنه فصل متتابع

متجدد<sup>(18)</sup>. لقد عُطِّلَ هذا المبدأ الحيوي وانتشرت نمطية التكرار والكسل العقلي والقانوني، وأدى الأمر إلى ظهور أنماط لا حصر لها من العلاقات الشخصية وانتشار الانتهازية، وظهر معالم التآكل من الأطراف في النظام وصولاً إلى بعض المواقع في جوهره. وهنا قدّمت حالة الحرب الإرهابية على سوريا نماذج قاسية في هذا الاتجاه، فهناك خيانة في مستوى نائب رئيس الجمهورية كما هو في حالة عبد الحليم خدام، وهناك انشقاق قميء لرئيس مجلس الوزراء في عز الأحداث، كما مثل ذلك المدعو رياض حجاب، وهناك وزراء خونة مثل رياض نعيان آغا وأسعد مصطفى، ونماذج كثيرة في هذا السياق انتظمتها جميعاً فكرة تأسيسية تقول: إن المسؤول الفاسد في النظام والثري المستغل في المجتمع قد أخذ المكاسب والامتيازات كلّها من الوطن وتخلّى عن الوطن في لحظة الشدة.

ت- في المدى السياسي الحزبي والتنظيمي كان هناك جمود في تحريك القوى السياسية وإطلاق فاعلية الجميع، وخاصةً بسبب إشكاليات مطروحة من قبل كثيرين في طبيعة صلة حزب البعث والوطن، وطبيعة صلة المعارضة ونظام الحكم، وعلى أنّ النقد البناء يجب أن يكون حقاً وواجباً بالنسبة إلى جميع المواطنين.

ث- وفي إطار نقاط الضعف هذه تشكلت فوارق نوعية كبيرة بين المبادئ القومية والاشتراكية والحالة الطبقيّة السائدة في المجتمع السوري، وأدى ذلك إلى تآكل الطبقة الوسطى على سبيل المثال، وظهر المهمّشين على أطراف المدن، وانتشار البطالة وهيجان المخالفات السكنية العشوائية، وظهر الفوارق بين البيئات الزراعية الفلاحية وبيئات المدن التجارية والوظيفية.

<sup>(18)</sup> - عدنان بيلونة، القائد الأسد والأمن القومي العربي، طبعة دار بلال، بيروت، ص 201.



ونحن هنا لسنا بصدد البحث المعمق في ثغرات الداخل السوري ولكن الأمانة العلمية تتطلب أن نطرح هذه المتلازمة التي تؤكد أنّ التآمر من الخارج والفساد من الداخل وجهان لعملة واحدة، ولا يقلل نسق الشعارات الثورية من خطر هذه المتلازمة على أن الأصل هو البحث في الأساسيات التي حركت هذا العدوان الإرهابي المنظم على سوريا، وفي هذا السياق يعرف العدو قبل الصديق والبعيد قبل القريب بأن سوريا مازالت تحتفظ بدورها وسلسلة مواقفها التي أرقت المشاريع الغربية والصهيونية. والتجربة السياسية في الوطن السوري قدمت نموذجاً فذاً قوي التأثير والإشعاع في الوطن العربي والعالم، رغم الثغرات ونقاط الضعف المنتشرة في بنية النظام نفسه، ومن هنا كان لابد من التقاط بعض العناوين الأساسية التي شكلت المبررات والدوافع لهذه الحرب الكونية على سوريا العربية.

1. تميز الوطن السوري بكونه مركزاً لمهد الإنسان والحضارة ومسيرتهما، ومن ثمّ مصدراً حضارياً بالمعنى الفكري والثقافي والاقتصادي، وفي محيطه وعمقه اندفعت الموجات الحضارية كلّها الوضعية منها والسماوية، وتكوّنت ذاكرة حية من جهة، ومتواترة من الأجداد إلى الأحفاد ومرتبطة بإنتاج نسق من المناقب والخصائص الكبرى من جهة أخرى، وفي عمقها مسألة حرية الوطن وسيادته وكرامته ودور أبنائه في أعمدة النظام وتوزعاته. وهذا مصدر لطالما أرقّ القوى الاستعمارية قديمها وحديثها، ومن هنا كان هذا التواتر الذي لم يهدأ ولم ينقطع في استهداف الوطن السوري. ولعلّ البنية الأساسية للموجة الإرهابية الراهنة على سوريا كانت تتمثل في ضرورة تدمير الوطن السوري من حيث مقوماته ومقدماته التاريخية، وهذا ما تابعه العالم كله في الهيجان المتخلف والحاقد عبر تدمير الأوابد التاريخية والمتاحف والنصوص والرموز التاريخية الكبرى، وكل ماله علاقة بوجود حضارة سوريا تقوم على العلم والسلام وتضامن شعوب العالم وتفاعل حضاراته القديمة. ولذلك لا بدّ من التأكيد أن الهدف المؤسس للموجة الإرهابية الاستعمارية الراهنة

كان يأخذ بالأولويات تدمير الذاكرة السورية بحثاً عن إنتاج دويلات بديلة تستجيب للمشروع الخارجي، وتؤمن للتخلف والجهل والغيبيات المخدرة مناخاً هو الذي يحقق من خلاله العدو أهدافه ومقاصده الكبرى.

2. على أن سوريا العربية ما برحت تمسك بمنهجها الحضاري القادم من الأعماق وباستمرار، وحتى هذه اللحظة كانت هي موئلاً لكل حق عربي مطارد، ومصدراً للإشعاع ضد موجات الظلم والظلام المنتشرة في الوطن العربي والإقليم. ومنذ الاستقلال في العام 1946 إلى مجمل الحروب والصراعات مع الكيان الصهيوني، وإلى هذه المواجهة الشجاعة للأحلاف والمعاهدات الاستعمارية، تميز الوطن السوري بمناقبه الكبرى، وكان باستمرار المقاتل في الصف الأول ضد الفناء، والمحرّك في المقدمة ضد الضياع والتمزق العربي، وفي منحنى ذلك جاء هذا الدور القومي لسوريا وأنجز هذا الوطن حرب تشرين بما فيها من إرادة ناضجة وواعية، وما فيها من مقدرة على التصدي لمنطق العدوان الصهيوني ومن يدعمه في الغرب بالمال والسلاح ومنتجات الثورة الصناعية وخبرة التسويق الإعلامي والثقافي المتلازمة مع خبرة قهر إرادة الشعوب عبر المؤامرات، والاعتماد على العملاء والساقطين في الداخل العربي ذاته.

لقد بدت حالة الصراع على سوريا وفيها وكأنها ثار تاريخي من جهة وسياسي معاصر من جهة أخرى، ولاسيما ابتداءً من الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003 ودور سوريا في رفضه وفضحه، وكذلك في تقديم الواجب الوطني لاحتضان أبناء العراق ومساعدة القوى المقاومة للاحتلال الأمريكي فيه. ومعروف أن المشروع الأمريكي منذ تلك اللحظة كان يعتمد على أن الخطوة الأولى في العراق والثانية مباشرة ستكون في سوريا، ولم يجد في كبح جماح هذا المشروع أخلاقيات الموقف السوري في مطاردة الإرهاب وحتى في إنقاذ بعض العسكريين الأمريكيين من برائته الفاتلة، ورغم أن الإدارة الأمريكية أقرت لسوريا بالميزة

الأخلاقية ولاسيما بعد تسليم القس الأمريكي للإدارة الأمريكية فإن الحقد الصهيوني والرجعي والامبريالي بقي في العمق يتوطد ويستكمل عناصر اندفاعاته ضد سوريا.

3. ظهرت في حدود الواقع نزعتان متناقضتان: سوريا بموقفها والمشروع الاستعماري الإرهابي في النقيض، وهنا نستطيع أن نستعين ببعض الشواهد والنصوص العالمية، فعلى سبيل المثال يقول تشرشل: إنه بعد الحرب العالمية الأولى وانهايار الامبراطورية العثمانية وجد المسؤولون البريطانيون متعاونين معهم ويؤمنون بفكرة تمزيق العالم العربي. وكان للحركة الوهابية دور أساس في ذلك، فمما يقوله تشرشل في عام 1953: إنه معجب بابن سعود بسبب ولاءه الراسخ لبريطانيا وهذا يعني أنه لا بد من استخدام نفوذ الوهابية وآل سعود الواسع<sup>(19)</sup>. ومعروف بأن الرئيس الأمريكي أيزنهاور (Eisenhower) كان يبحث عن خطة ميكيافيلية من الدرجة العالية لتقسيم العرب<sup>(20)</sup>. وقد كان الشريك الإقليمي لهذا التوجه هو تنظيم الإخوان المسلمين بدءاً من عشرينيات القرن العشرين<sup>(21)</sup>.

والمهم أن كثيرين توهموا أن الصراع السوري هو حرب أهلية، أو ربما ثورة شعبية، أو شكل من أشكال "الصراع الطائفي الداخلي"، كما روج المعتدون لذلك، وكلها مزاعم مفتعلة وتتأطر جميعها في مفهوم خلق الذرائع الكاذبة على مدى ربع القرن الماضي قبل الأحداث. والمدى هنا واسع وعميق، ولكننا اقتبسنا ما يجدي في التعريف الموضوعي بحقيقة هذا العدوان على سوريا، وبصورة عامة فقد تمت صياغة منظومة الوقائع والأهداف والذرائع التي انتظمت فيها المشاريع الإمبريالية

(19) - أندرسون، الحرب القذرة على سورية...، ص 130.

(20) - المصدر نفسه، ص 130.

(21) - المصدر نفسه، ص 131.

الغربية مع الأهداف الصهيونية المتحركة باستمرار لتنفيذ هذا الدور الذي كُلفت به واستجابت له أنظمة عربية لطالما احتسبناها شقيقة أو صديقة، مثل آل سعود وآل ثان في قطر، وآل نهيان في الإمارات (وآلات كثيرة منتشرة في العالم العربي). ومنذ بداية الأحداث المؤلمة امتزجت العوامل الحاقدة كلّها في محاولة افتراس الوطن السوري، وكان في عمق ذلك المشروع الخارجي والأدوار الرجعية والموقف الصهيوني، منذ اللجوء إلى التحريض على الفتنة في الداخل السوري وإحاطة هذه المنظومة كلّها المعادية لسوريا بفيض أسود أساسه تدمير الوطن السوري، ونشر الرعب، واعتماد أسلوب الذبح والقتل والتهجير المنظم.

### ثامناً) - المراحل والأبعاد التي انتهجها العدوان الإرهابي في سوريا:

سوف يكون من الصواب أن نحيط ببعض النقاط التي استقر عليها الإرهاب بمعناه الواسع، من الداخل السوري إلى مراكز إطلاق هذا الإرهاب في الغرب وفي الإقليم، ذلك أن الإرهاب بطبيعته وبالواقع الذي وصل إليه اتخذ منهج الحركة والتحرك انسجاماً مع معطيات الميدان العسكري والسياسي، وتلافاً للوقوع في مطبات كبرى ومبكرة، والعالم يدرك أن الكتلة الصماء للإرهاب كانت مزيجاً من وحدة القوى الغربية والأنظمة الإقليمية والأذرع التنظيمية التي تنتمي بفكرها وصيغ تنظيمها لتنظيم الوهابية والتنظيم العام للإخوان المسلمين، وكلاهما له تاريخ طويل من الانتماء للقوى الكبرى الامبريالية ضد خصومهم المحليين، وهما المصدران اللذان مارسا الدور البنائي فكرياً وسياسياً وعسكرياً في تشويه الدين الإسلامي بصورة عامة، وفكرة الجهاد خاصة التي تتميز بتقديرها العالي والحساس في الإسلام من خلال كونها فكرة دفاعية ولا تتم إلا على من يعتدي على المسلمين، وذلك كلّه حولوه إلى رؤية بغیضة بموجبها ترتكب الجرائم الوحشية والمجازر الفظيعة ومستويات التدمير المنهجي المنظم لمؤسسات الدولة.

وهنا يجب أن نطلق في البحث كما هو في التداول منهج العوامل المضافة التي انتهجها الإرهاب توتخياً لإحراز مسافات جديدة في المعارك ضد الوطن السوري، وهذه العوامل المضافة هي احتياطات قائمة، ولكنها سوف تطلق في حينها بما يؤدي إلى هذا التلازم في خدمة المنهج الإرهابي الأساس في أصوله وتطوراته، ومن هذه العوامل المضافة التي تحولت إلى فعل أساسي في البنية الإرهابية نذكر ما يأتي:

1. الانتقال من منهج المواجهة المنظمة والمكشوفة إلى مرحلة الاستهداف العشوائي، الذي بموجبه صار كل شيء متحركاً داخل القرى والمدن السورية، وهو هدف مباشر للإرهاب، إنها قصة قذائف الموت العشوائية وهي عمياء والمقصود منها وفيها هو إحداث الأثر التدميري والنفسي في الحياة العامة للمجتمع السوري. وهذا العامل وسيلة خطيرة جداً لأنها تضع في الاعتبار أن كل إنسان هو مستهدف، وكل موقع هو مستهدف، ومن ثم لا قيمة لأية إجراءات تحصينية تقل فيها نسبة الخطر، وقد امتد هذا المنهج الهمجى بصورة منظمة على مدى تطور المعارك ولاسيما في المناطق المحررة مثل حلب وغوطة دمشق والجنوب السوري والمنطقة الشمالية الشرقية.

2. ظهر العامل الثاني فيما هو مضاف إلى المنهج الإرهابي من خلال اللجوء إلى الادعاء المفبرك والتزوير واختلاق الوقائع، خاصة من خلال الاتهامات المنظمة والمنسقة بأن القوات المسلحة السورية تستخدم أسلحة غير مشروعة في القتال في الرد على الإرهابيين في مناطق تحشدتهم، دون التمييز بين العناصر المقاتلة والسكان المدنيين ولاسيما في مناطق بعينها، كما بدأت هذه القصة من خان العسل شمالي سوريا، وكذلك خان شيخون في الوسط السوري، والاتهام الأكبر الذي حدث في الغوطة الشرقية. كان هناك على الدوام تمهيد إعلامي عبر ميديا كثيفة وخبرة تكنولوجية وتطبيقات اشترك فيها الغرب بأجهزة الأمن فيه، مع ملحقات من شهود الزور في الداخل السوري، وإجراءات مباشرة لأخذ هذه الجريمة

إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن والوكالات المتخصصة. وهنا دارت معركة ما زالت مستمرة حتى الآن بين التيارات الكبرى التي صارت واضحة المعالم، المتمثلة في الغرب الاستعماري وتوابعه وتيار المقاومة والسلام، وقد أدت فيه روسيا وأطرافه جميعها دوراً مهماً مشهوداً.

3. ذهبت القوى الإرهابية عبر الرعاة والحماة الأساسيين باتجاه استحداث الفتنة الإثنية، وبدأت تركّز على الأكراد من أبناء الوطن السوري، وحاولت أمريكا والغرب عموماً إطلاق الخدعة التاريخية الكبرى بأنها مع الأقلية الكردية وتسعى لحمايتهم، وأن الهدف الأساس لها هو تلبية أهدافهم القومية، وتطور الأمر إلى الحد الذي تم فيه تشكيل منظمات عسكرية مسلحة، كان لها دور في رفض المشروع الإرهابي خاصةً في المناطق الشمالية والشرقية .

4. كان من جملة العوامل المضافة وذات التأثير في مجريات الصراع عسكرياً وفكرياً هذا البناء المتعمد لفكرة التلازم بين الإرهاب والمبررات الإسلامية، لقد لاقت هذه الفكرة تبنياً عضوياً له جذور تاريخية من قبل الغرب الاستعماري، وقد ربط المشروع الإرهابي المتن الأساسي للعمل العسكري بفریضة الجهاد الذي اختطفوه إلى مستوى قتل النفس التي حرم الله، وتدمير المنشآت، ونسف كل أثر مادي أو معنوي لتاريخ الوطن الحضاري سواء في سوريا أو العراق أو في مصر. كان ذلك منهجاً متعمداً حركوه من طرح الفكرة إلى ممارستها كقوة مستحكمة في الواقع، وأبقوه في التداول حتى هذه المراحل الأخيرة من الصراع. نحن الآن أمام الكتلة البنوية للمشروع الإرهابي، وهي ليست صماء أو مغلقة على ذاتها، ولكنها ثابتة في العمق، ونامية فيما تطورت إليه الأحداث وعبر تقلبات مستويات الصراع العسكري والسياسي.

بالمعنى الكامل نحن أمام حالة من العدوان التاريخي، أي الذي لا سابق له في كل أنماط العدوان والحرب على الشعوب الآمنة، وبمعنى أن صيغة العالم في

اصطفافاته وفي موجباته الحضارية والثقافية ستكون مختلفة بعد الحرب عنها قبل هذه الحرب الكونية التاريخية وفي أثنائها، وكذلك دخل البعد المصري في مضامين هذا العدوان وهذا الاستهداف، أي أن حركة الحياة والمستقرات التاريخية وعوامل ثبات الأمة ووجود الوطن بكامله، ذلك كله معرض للخطر، فالمسألة زلزال دمر الكثير وأصاب الجميع ووقعت الأزمة بكاملها بين حدي الموت والحياة، بما اقتضته من شعور بالتبدلات النوعية التي أراد الإرهاب إطلاقها في الوطن السوري، بحيث تصبح الصبغة العامة لهذا الوطن. ممثلة بالجمود الحضاري عبر الادعاءات الإسلامية، وكذلك في هذا الانتماء المطلق للوطن العربي كله للمشروع الغربي الإمبريالي الذي ما زال يستغرق أنماطاً من العدوان والهيمنة لم تهدأ ولم تتكفى ولم تتبدل.

وعلى هذا النحو فقد اشْتُقَّت المناهج والأساليب العسكرية والاجتماعية والسياسية التي تناسب وتتناسب مع فكرة التدمير الشامل والتغيير في البنية والهوية ومكونات المصير في الحاضر كما في المستقبل، ومن هنا نشير إلى الأمور الآتية:

1. كان المنهج الإرهابي يتخذ صفة التدرج في أشكال العدوان بدءاً من الادعاء بوجود مطالب وحقوق مشروعة بطريقة التظاهر السلمي، وحاولوا إظهار ذلك بدءاً من درعا، وهكذا تم التركيز على الانتشار الغرائزي لهذا الهيجان الذي لم يهدأ إلى أن وصل الأمر منذ البدء إلى مرحلة العدوان الإرهابي المسلح، إذ أثبتت الوقائع أن المجموعات الإرهابية كانت معدة سلفاً وفي مراكز التدريب العسكري والأمني والسلوكي وحقوله في أوكار الغرب، أو في المواقع القريبة من الوطن السوري والعراقي. ثم إن هذا التدرج ذهب باتجاه أن يكون متماسكاً ومتمكلاً بعد أن تمت السيطرة الإرهابية على مواقع كثيرة وخطيرة في الجغرافيا السورية، وعندها بدأ المشروع الإرهابي لضبط الحالة السكانية على المبدأ ذاته في الانتشار الجغرافي، ومع هذا الانتشار الإرهابي كان القتل الجماعي وتنفيذ المجازر وإطلاق الادعاءات

- الدينية التي يتحول بموجبها أبناء الوطن السوري من غير المسلمين إلى حوافز لإنتاج التدمير والموت "فهؤلاء من الأقليات المعادية للإسلام" كما يدعون، وفيهم العربي السوري المسيحي والدرزي والاسماعيلي والعلوي والأطراف الأخرى الكثيرة. وكان ذلك كلّه يجري من خلال إطلاق الذبح والتدمير ضد أي فرد أو مجموعة أو شريحة بغض النظر عن انتمائها الديني والطائفي في مناهج القتل المنظم.
2. ثم ظهرت منذ الربع الأول للعدوان، وخاصةً من آذار عام 2011 حتى حدود العام 2013، هذه النزعة المبرمجة والقادمة من مصادر القوى راعية الإرهاب، وذلك عبر تدمير المواقع العسكرية السورية بطريقة اجتياح الثكنات ومقرات الألوية العسكرية، وبصورة أساسية في محاولة لتدمير كتائب الدفاع الجوي الممتدة على المنطقة الغربية والجنوبية وفي أنحاء الوطن السوري كلّه. كان واضحاً أن الهدف هو إخراج هذه الأسلحة الوطنية السورية من طاقة المواجهة مع العدو الصهيوني، وهذا مطلب جوهرى بالنسبة إلى الإرهاب بحيث لا يتبقى أمام الوطن ونظامه السياسي سوى الاختيار بين الاستسلام للعدو الصهيوني أو التعرض للفناء المنهجي المتسع والمتعمق مع كل يوم.
3. على أن الهدف الإرهابي الاستعماري أخذ بالحسبان ومنذ البدء ضرورة تدمير مصادر البناء والاقتصاد في الوطن السوري، وتعطيل حركة الحياة ولاسيما في مجال المصانع والمؤسسات الكبرى والطاقة وخطوط نقل هذه الطاقة من منابعها إلى شرايين الوطن السوري، ولاسيما مصادر النفط والغاز والكهرباء والماء والمحاصيل الزراعية وحركة التبادل التجاري بين مراكز الإنتاج والتسويق، وبموجب ذلك دُمِّرَت شبكة الطرق والسكك الحديدية والمطارات المدنية والعسكرية، والأخطر من ذلك كله أن أشلاء هذه الثروة الاقتصادية قد افترستها قوى خارجية مثل تركيا أردوغان والكيان الصهيوني، وقبل هذا وذاك توضح التسهيل من قبل الغرب لنهب ما تبقى من مواد اقتصادية ومن معامل ومن خبرات بشرية صناعية.



إن حلقات المشروع الإرهابي العدوانية قد اكتسبت صفة التكامل فيما بينها، والتطور المتلازم مع حقيقة المشروع في جوهره، ذلك أن المخطط بأهدافه وقواه ورعاته ودعائه وملحقاته من العائلات الحاكمة، ولا سيما في الخليج العربي والمجاميع الداخلية التي خضعت لمعايير التهيج الغرائزي ووقعت في فخ الانتماء للأجنبي، ذلك كله كان لا بد من إحاطته بإمكانية افتعال المشروع عبر المؤسسات العربية، وفي مقدمتها جامعة الدول العربية، وعبر الأمم المتحدة ومجلس الأمن والوكالات المتخصصة في الأمم المتحدة. كان الهدف من هذا التوجه الذي انطلق مباشرة مع تطبيقات الإرهاب المنظم يتمثل في إنجاز أمرين خطيرين:

1. إضفاء صفة الشرعية الدولية وفي عمقها الشرعية العربية على وقائع الإرهاب وما يعنيه ذلك من اتهامات مباشرة للدولة السورية، خاصة من خلال الادعاءات بأن النظام السياسي يقتل أبناء شعبه ويدمر مصالح الوطن السوري وأن هذا النظام يمارس دوراً غير إنساني في الرد على العدوان القائم، وكان المحور العربي الرسمي والأممي يشهد نشاطات متواترة تؤكد إدانة الدولة السورية من جهة، من خلال قرارات وبيانات واجتماعات ومن خلال مبعوثين عرب ودوليين، وتؤكد من جهة ثانية إجماعاً عربياً مفتعلاً وأممياً متوقعاً لدعم الإرهاب ولتعميق منطوق إنجاز المشروع بكامله في الوطن السوري.

2. لقد استخدمت المنصات العربية، وفي أساسها جامعة الدول العربية، والمنصات الدولية وفي أساسها الأمم المتحدة، بصورة منظمة ودقيقة، وكان يدعم هذا الخط فيض من استثمار التزوير والتكنولوجيا وشهود الزور في إنجاز نطاق ضاغط وغير قابل للاختراق يصب في نهاية الأمر في الهدف الأساس، وهو تدمير الوطن السوري بغطاء عربي ودولي منظم ومنطور.

دخل هذا التوجه العربي الرسمي والدولي كسلاح استراتيجي يوازي ويتكامل مع المعارك في الميادين العسكرية، ومنذ البداية بيعت الجامعة العربية وممثليها وقراراتها لآل

ثان في دويلة قطر وبمشاركة مطلقة من آل سعود ودول الخليج والنظام السياسي العربي بصورة عامة. وقد أكدت نشاطات هذه الإرادة العربية المزعومة على إنجاز الحصار السياسي على سوريا من جهة، وعلى تأمين غطاء عربي عملي ومتحرك ظهرت نتائجه من خلال القرارات المتعسفة والغوغائية ضد سوريا. وبالمحصلة ظهرت عيوب النظام السياسي العربي كلّها في الاستجابة للإرادة الغربية الصهيونية، وفي مجال التزوير المتعمد، حينما تم تبني الإرهاب بهمجيته ومخاطره كلّها على أنه إرادة شعبية ومطالب محقة وريع عربي لا بد من صيانته واستثماره في تفاصيل وعناوين العدوان التاريخي على سوريا، ثم نقلت المهمة إلى مجلس الأمن وإلى الأمم المتحدة؛ والقصد من ذلك بطبيعة الحال هو إظهار هذا الهيجان العدواني على أنه نجدة وإغاثة للشعب السوري، وأنه مشروع يحظى برضا دول العالم وتضامنها ورعايتها في المؤسسة العالمية وفي المواقف الأحادية أو الثنائية لدول الغرب، باعتبار أن هذا الغرب هو الراعي لحقوق البشر والمدافع عن المظلومين، وقد كان هذا تياراً مهماً في تطبيقات العدوان الكوني على سوريا.

#### **تاسعاً) - مقومات الأداء الوطني السوري في الرد على الإرهاب:**

سيكون من المفيد أن نتناول هذه الفقرة ببعض الشواهد الأساسية التي أطلقها السيد الرئيس بشار الأسد، فهو يقول بعد تنصيبه الأول لرئاسة الوطن: "إننا ندعو الولايات المتحدة الأمريكية لكي تقوم بدورها بشكل كامل وحيادي إذ لا بدّ من ممارسة التأثير المطلوب لتنفيذ قرارات الشرعية الدولية بما نصت عليه من حقوق للشعب اللبناني والشعب السوري والشعب الفلسطيني، ونؤكد هنا أننا مستعجلون لتحقيق السلام، ولكننا غير مستعدين للتفريط بالأرض، ولا نقبل لسيادتنا أن تمس بمعنى أن نستعجل السلام لأنه خيارنا والشعب محب للسلام عبر التاريخ"<sup>(22)</sup>. وفي مقطع آخر يقول: "سنبقى

<sup>(22)</sup> - مجلة المناضل، العدد 303، تموز - آب 2000.

نتذكر وسنحرص على أن يتذكر أبنائنا أيضاً، سنخبي لهم صور اطفال غزة وجروحهم المفتوحة ودماءهم النازفة فوق ألعابهم، وسنخبرهم عن الشهداء والتكالي والأرامل والمعوقين وسنعلمهم بأن المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف"<sup>(23)</sup> وفي مقابلة مع صحيفة ديرشبيغل الألمانية يقول السيد الرئيس بشار الأسد: "بالأساس أنا لا أؤمن بالتجارب المنسوخة، وهناك اقتباس وهناك خصوصيات وهذه تتبع من طبيعة المجتمع وتاريخه ومن ثمَّ سيكون هناك بكل تأكيد نموذج سوري فقط"<sup>(24)</sup>.

وعلى أية حال فإن الرئيس بشار الأسد يتمتع بدعم كبير من الشعب السوري؛ والدليل على ذلك أن غالبية السكان كانت توجد في مناطق سيطرة الدولة، وهذه حقيقة لا تتأثر بميزة بشار الأسد المؤسسية ( أي أن شعبيته لا علاقة لها بمنصبه ) في حين أن الدعم للجيش العربي السوري أعلى من ذلك.

إن السيد الرئيس بشار الأسد هو الرئيس الحادي والعشرون لسوريا، ومنذ تسلمه لرئاسة الجمهورية عام 2000، بعد شهر واحد من وفاة والده، أصيبت مرحلته بثلاثة أحداث مهمة، الأول هو الاجتياح الأمريكي للعراق عام 2003، والثاني هو اغتيال رفيق الحريري عام 2005 وما تلى ذلك من انسحاب للجيش السوري من لبنان، وأما الثالث فهو الأخطر، وقد تمثل في الحرب على سوريا ابتداءً من آذار عام 2011.

منذ أحداث أيلول 2001 دخلت السياسة الأمريكية بالاعتقاد بأن "إسرائيل" ليست سبب الإرهاب، ومعروف أن القرار 1373 الصادر بعنوان "مكافحة الإرهاب" إنما هو قانون طوارئ أمريكي سوف يفتح الباب أمام حروب متعددة على الشعوب. من المعروف أنه لم يكن لسوريا أي دور في هذه الأحداث، وأن 15 من أصل 19 مهاجماً كانوا

<sup>(23)</sup> - مجلة الأخبار، 17 كانون الثاني 2009.

<sup>(24)</sup> - مقابلة الرئيس الأسد مع صحيفة ديرشبيغل <http://www.presidentassad.net>

سعوديين و"ليسوا سوريين". واستطراداً لهذا المعنى يقول الصحفي الأمريكي ذو الأصول اليهودية سيمور هيرش (Seymour Hersh): "إن سوريا قدمت معلومات استخباراتية حصلت عليها من التحقيق مع سوري يحمل الجنسية الألمانية، هو محمد حيدر الزمار الذي يشك بأنه أدّى دوراً في هجمات 9/11، وقدمت سوريا معلومات عن محمد عطا أحد المشاركين مباشرةً في الهجوم على مركز التجارة الدولية وكذلك عن رجل الأعمال مؤمن دركزلي"<sup>(25)</sup>. ومع ذلك فقد كان التآمر الأمريكي في استخدام الإرهاب ضد سوريا. وإن التفاعل بطريقة نقدية مع هذه النصوص يؤكد الخلاصات الآتية:

1. إنّ الأمر يتصل بطبيعة الوطن السوري وسيادته، التي تمتد من الماضي السحيق، وتذهب باتجاه القادم المتناغم مع إيقاع المستقبل، وهناك مخطط لتدميرها، ممّا يعني أن الحرب الناشئة على سوريا ستكون هذه المرة مصيرية وتاريخية وتتوضع فيها أطر صراع الإرادات كلّها، وبهذا المعنى فإن كل شيء، إن كان في مرحلة الإعداد للإرهاب، أو في تهيئة الميدان لانتشاره وتفجير المعارك، إنّما كان يأخذ بالحسبان أمرين أساسيين:

أ- العمل على التدمير الشامل للوطن السوري بما فيه من مقومات تاريخية وحضارية وسياسية، أي تأكيد على تغيير البنية السورية وليس الاكتفاء بمجرد إضعافها أو التضييق على منافذها الموقفية، وكان ذلك كله في الذهاب وفي الإياب يصب في مصلحة العدو الصهيوني، ومعروف أن إزاحة سوريا بهذا المعنى ستشكل طريقة سالكة أمام هذا العدو لتحقيق مجمل الهدف المعادي.

ب- كانت المرحلة الأولى من العدوان على سوريا تستفيد من لحظة التداخل والاختلاطات، ولا سيما حينما يكون هناك حراك له صيغة شعبية كما بدأ من درعا، ومعروف أنه في حالة درعا امتدت الهجمات إلى حمص بدءاً من نيسان

<sup>(25)</sup> سيمور هيرش، "السوريون يراهنون" (The Newyorker، 79، 28 تموز 2003).

2011، وقد كان الهدف المعلن هو إسقاط "النظام العلماني العلوي الكافر"، وكان خط المواجهة يمتد من المتعاونين مع أمريكا والصهيونية إلى المتعاونين مع السعودية وقطر وتركيا.

2. لم تكن الصدمة سهلة أو محدودة ولكن لحظة الاستفاقة والصحوه سرعان ما بدأت تأخذ مداها وعلى وجه السرعة، رغم حدوث الانهيارات في الوطن السوري وفي ظل تنامي قوة الإرهاب كماً ونوعاً وفي منحى الدعم العضوي المطلق من الغرب وإسرائيل ودول في المنطقة لهذا الإرهاب. كان الموقف الوطني السوري يبحث عن عناصره وعن الكيفية التي لابدّ فيها من تنظيمها وإطلاق قوتها في الميدان العسكري والسياسي، رغم التطورات الجارفة المتمثلة بانتشار الإرهاب في مساحات واسعة من الجغرافيا السورية، ورغم خروج كثير من السوريين مهاجرين أو مهجرين، منشقين إرادياً أو مندمجين بالمشروع الخارجي، تحت وطأة الإغراءات المادية والفبركات الإعلامية وسطوة الثقافة الإسلامية المستبدة، وإطلاق مزاعم بأن الحال سوف يؤول إلى مستقرات إيجابية بعد إسقاط النظام السياسي ورحيل الرئيس الأسد. على أن عناصر الموقف السوري في الرد والردع كان يمكن استيعابها والعمل على تشيبتها وفق النقاط الآتية:

أ- التبصر في الزمن العاصف، لأن ما يخطط لسوريا وما يراد لها هو تدمير همجي يتوزع في مسارب خدمة المشروع الغربي، وتأمين المصالح الصهيونية، وسيطرة الفكر والثقافة التكفيريين الإرهابيين.

ب- معروف أن سوريا العربية تاريخياً وأخلاقياً تتميز بخصائص ثابتة هي التي تتبعث في اللحظات الصعبة والمنعطفات المصيرية في التاريخ السوري، وهنا برزت في التداول خاصيتان للشعب السوري: الأولى تؤكد أن الوطن السوري يجيد الصحوه بعد الكبوة، والثانية تؤكد أن الشعب السوري يتقن فن اتخاذ القرار الصعب في لحظة الخطر، برز هذا من عمق الجراح ومن جوف النار إلى الخيارات الثابتة

التي لا يكون فيها سوى هذا الاختيار لمصير سوريا وكرامتها بعيداً عن الحسابات المادية المرهقة.

ت- لقد توضحت الآن ولو في جو من العتمة والاختلاط هذه النزعة في الحرب على سوريا، إذ المطلوب هو إبادة "الحالة السورية" وهو طلب لا ينسجم في نهاية الأمر مع الدور التاريخي للوطن السوري، ومع منطق الاعتدال في الإسلام الشامل، ومع الاحتمالات المبنية على اختلاق وافتعال مصادر تكوين جديدة مناقضة ومناهضة لطبيعة سوريا تاريخياً.

3. لم تترك البيانات المعادية لسوريا أي مجال للشك في أن المشروع الإرهابي يتعمق يوماً وهو هجين على قدر ما هو متخلف وهمجي ولنأخذ مؤشرات على ذلك:
- أ- في 18 آب 2011 أعلن الرئيس الأمريكي أوباما موقفه الصريح بقوله "لقد حان الوقت لكي يرحل الأسد من أجل خير شعبه"<sup>(26)</sup>.
- ب- أُشِنتُ مجموعة أصدقاء سوريا أو الشعب السوري لاحقاً ابتداءً من العام 2012، عبر تصريحات غربية وأعرابية تدعو إلى إقامة منطقة محظورة على الطيران السوري كما قال السيناتور جو ليبرمان<sup>(27)</sup>.
- ت- في 31 آب عام 2013 أعلن أوباما مدعياً قوله عن امتلاك سوريا أسلحة دمار شامل، وقد انتهى الأمر حين ذلك بتوافق أمريكي روسي على القرار الدولي 2118 الذي يقضي بتفكيك مخزون الأسلحة الكيماوية الممنوعة كلّها في سوريا<sup>(28)</sup>.

<sup>(26)</sup> www.alalam.ir هل تغيرت أميركا أم ربح الأسد؟ 29 أذار 2016.

<sup>(27)</sup> كليب، الأسد بين الرحيل و التدمير...، ص 147.

<sup>(28)</sup> http://www.bbc.com اتفاق روسي أمريكي يقضي بتدمير الأسلحة الكيماوية السورية

قبل 2013/9/2014.14.

ث- في كتابه ( العالم كما تراه الإمبراطورية الأمريكية) يكشف جوليان أسانج بوضوح عن مخطط الإطاحة بالرئيس الأسد<sup>(29)</sup>، وقد أضيف إلى ذلك تلك الجملة التي أطلقها أحمد داوود أوغلو رئيس وزراء تركيا، وهي التي تقول: إن فكر الشرق الأوسط الجديد سوف ترسمه تركيا بالتأكيد<sup>(30)</sup>.

أسهمت هذه المعطيات في استثارة مواضع الكرامة الوطنية السورية، وبدأ الوعي في الداخل السوري يتشكل على قاعدة ضرورة البدء السياسي والعملي لمواجهة المشروع الإرهابي الاستعماري، وبدأ الوعي كتعبير رومنسي يتشكل في جوف الخطر والنار والانهيئات، ولكن مجرد وجوده كان يعني أن ثمة تحولات في الفكر والتطبيق لا بد أن تأخذ مداها، فكانت البدايات النوعية المتناثرة هنا وهناك في الوطن السوري.

### الخاتمة حول أساسيات المنهج السوري في مرحلتها الرد والردع:

ليس من السهل استجماع عناصر الأداء الوطني السوري في عناوين جامعة مانعة، وذلك لأسباب أساسية:

1. أولها حالة التداخل والتقلب التي استغرقتها مسألة الموقف السوري عسكرياً وسياسياً، إذ نحن أمام مناخ معقد ومضطرب كان من الصعب التنبؤ بمجرياته المتصلة بيقينيات الوطن السوري، القائمة على الصبر والمقدرة على التضحية واستحضار مقومات الدفاع كلّها عن سيادة الوطن ومصيره وكرامته، أما المتن العام للعدوان فكان مفتوحاً على النمو والتزايد في كل مفصل، وعلى التحاق أفواج جديدة من رعاة الارهاب وأذرعته، وهذا ما جعل المعارك تدور بين كر وفر وتشهد تحولات تراجيدية وصلت في ذروة هيجانها إلى أن اقتربت من أن تطبق على كامل الوطن السوري جغرافياً وبشرياً.

<sup>(29)</sup> روسيا اليوم، 2015/9/11.

<sup>(30)</sup> مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2016/12/19.

2. تعددت القوى المعادية لسوريا بصفوفها ومسمياتها كلّها، من القوى الحاضنة للإرهاب، إلى المغذية والراعية له، إلى المنخرطة مباشرة في الأعمال العسكرية ضد سوريا، واستطاعت هذه القوى أن تتجزّ نسقاً نقله الإعلام بكل ما فيه من طاقة وتكنولوجيا إلى درجة تضليل الرأي العام العالمي، وإلى درجة الاقتراب من زعزعة الرأي العام الوطني السوري. وبالمحصلة كان سير المعارك يخضع لهذا المنظور المعقد، حتى وصلت الأمور في التحولات الميدانية إلى حد الظهور الواضح والاستقرار الثابت، وعند هذه المرحلة بدءاً من منتصف 2015 صارت الفرصة قائمة لكي تجري دراسة المنهج وعناصر الموقف السوري، وخصائص المعارك وميزاتها التي استمرت هذه الأعوام كلّها.
3. إن دخول العنصر العربي "الشقيق" في العدوان المباشر على سوريا منذ البداية، المتمثل بالسعودية وقطر والأردن بصورة أساسية، وكذلك إطلاق العنصر الديني الإسلامي بما فيه من ثقافة محنطة وما يطلقه من أفكار ومواقف قد بُنيت من قبل قوى المؤامرة بالتزوير والفبركات، قد قدما إسهامات خطيرة جداً واستغرقت زماً طويلاً حتى لحظة افتضاح أمرهما في كونهما مجرد أدوات إجرامية لتمثيل السياسة الأمريكية الإسرائيلية.
4. كان لهذا التداخل بين الخارج والداخل أهمية غير محسوبة وغير حميدة في استيضاح الموقف الوطني السوري وعناصر القوة والثبات فيه، فالمعارك لم تعد تآمرًا على سوريا من أطرافها وإنما أصبحت متداخلة بعمق في الداخل السوري، ولا سيما من الجنوب والشمال والغرب والقصير ومنافذ أخرى. كان هذا البعد الداخلي يشكل رقماً مادياً بيد مصادر العدوان، وكان من شأنه أن يجعل إمكانية الفرز والتحليل قاسية جداً بحكم هذا التدخل البشري والعملياتي.



ومع ذلك فإن خط سير المواجهات الصعبة والمتحركة والنوعية، سياسياً وعسكرياً، لم يعد خافياً لا على أبناء الوطن ولا على كثير من المراكز والمواقع والأنظمة والنخب الخارجية، وعلى أساس ذلك يمكن أن نجمل عناصر الموقف الوطني السوري كما يأتي:

1. إن العنوان الأبرز الذي يستوعب ما عداه ويستغرق ما بعده من تطورات هو (الأداء الوطني السوري). فقد تطور الموقف السوري في المواجهة من المستوى الأمني إلى المستوى العسكري، ومن ثم استقر في الربع الأخير من الصراع كما هو واضح على قاعدة استمرارية الأداء الوطني السوري، أما الآخرون فقد صعدوا في تفجير الموقف إلى حد القتل والتدمير. حدث هنا التوازن في المعادلة التاريخية لسوريا، فإذا كان الهدف الأساس من هذا العدوان هو تدمير الوطن السوري بكلتيه وبمجملي عناصر وجوده التاريخية والحضارية والموقفية الراهنة، فإن الوضع النهائي في المواجهة بدا وكأنه يستدرج طاقات الوطن من مكانها بصورة متنامية يومياً، فكان أن امتدت الانتصارات العسكرية، وانتشرت مساحة الوعي بما يجري، وتحقق في الوطن السوري شرط وجود القوة الأساسية، إلى أن وصل الأمر إلى أن تحقيق شرط القوة الفائضة، إذ صارت احتياجات الميدان مؤمنة، والاحتياطي مؤمن، ورصيد القوة لمواجهة التحديات المستجدة مؤمن أيضاً، وفي عمق هذا كله رحلت تلك الاعتبارات كلها وموجات الغيوم والسموم التي شكلت أحد عناصر القوة في المشروع الإرهابي.

2. كان المنهج الأساس، عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وتاريخياً، يتوازي ويتقاطع أحياناً وتتقارب خطوطه إلى درجة المنظومة الموحدة بين مقومات هذا المنهج، وهذا تطور أدخل طاقة جديدة في المعارك وقدم مواصفات جديدة تقوم على أساس ضرورة الفرز بين الوطن وغير الوطن، وبين التآمر ومشروعية الأداء، وبين نكسات اللحظة الراهنة التي تحولت إلى نقاط سوداء في الالتحاق بالعدو الصهيوني والمشاريع الغربية والخضوع للاعتبارات الرجعية. إن هذا كله كان

يتصادم إلى أبعد حد مع تاريخ الوطن السوري ونضال الآباء والأجداد فيه، ومع كل المقومات الأدبية والشعبية التي تنتظم الحقيقة الناصعة لهذا الوطن في الرد على التحديات وفي مقدرة تلبية المعارك بفيض من الصبر والسمو فوق الجراح والشهادة والشهداء.

لقد بدا في حالات كثيرة أنه صار من المعيب إلى حد الخيانة أن تجري عملية الإصلاح وتلبية المطالب عبر مبادلتها بالخيانة العظمى والالتحاق بالموكب الصهيوني الرجعي الإمبريالي المشؤوم، وهنا تبدى انبعاث منهج الشرف والانتماء الوطني التاريخي وخصائص الترابط العضوي بين الماضي والحاضر، ولم يعد ممكناً الاعتماد على نسق الدعاية الغربية وموقف الأفراد المعارضين الذين باعوا وخنأوا، كذلك لم يعد ممكناً الصمت أو التلطي تحت همجية الأمر الواقع. فقد انكشف كل شيء على حقيقته وصار المواطن السوري مخيراً في ذاته وعبر الموقف بين استعادة التوازن عبر الشرف والقيم أو الاندماج الذي وصل حد الاستعباد الذهني والقتالي في المرحلة الأولى؛ على أن القواعد الأساسية التي بني عليها الأداء الوطني وانتظمت معطيات هذا البناء بتصاعد مستمر إنما كانت تتمثل بالنسق المؤسس عبر الشهادة والشهداء.

وهنا كانت تتجلى سوريا العربية حيث خصائصها، أعني المواقف المستقرة والمستمرة في حياة الوطن السوري، وأعني درجة الإيمان بسيادة الوطن مع ما يتطلبه ذلك من تضحيات تصبح الشهادة فيها قيمة كبرى وسمواً أكبر وخلوداً إن كان بالمستوى الديني أو الاجتماعي أو الأخلاقي. فقد صارت سوريا منذ الربع الثالث من الأزمنة تعرف بأنها (وطن الشهداء)، ولم تعد المسألة متصلة بشهداء الوطن بل أصبحت سوريا كلها، بفضل جيشها الوطني بالمقام الأول في عمق الشهادة، فهناك من استشهد، وهناك مشروع شهادة وهو ينتظر في كل لحظة أن يلتحق بالموكب، وهناك من هو في جوف النار والمعارك وهو صابر محتسب،

وهذه الحالات كلّها لم تبدل ولم تقدم الدم بالمصادفة أو مجاناً، فقد استقرّ الشعار (سوريا وطن الشهداء) نظراً لانتشار الشهادة وتكاثر أعداد الشهداء، ونظراً إلى مستوى الشهادة في المعارك بما بني عليه هذا المستوى من أريحية وشجاعة وعبقريّة وإبداع، لقد قدمت الشهادة على أنها شرط الصمود الذي حدث، وبعد ذلك شرط الانتصارات التي ما زالت جارية حتى الآن.

لقد تحققت نبوءة لطالما أطلقها الرئيس الراحل حافظ الأسد حينما قال في الثمانينيات "أريد الشهادة أن تكون العادي والدائم في بناء الوطن وفي طاقات المواجهة لكل عدوان"<sup>(31)</sup>. كان هذا الموضوع الحساس ينشر معايير تمردت على الفبركة والتضليل، وفعلاً تحول الشهداء إلى مشاعل على الطريق حتى نهاية الطريق، وتكشفت تداعيات هذا الخيار السامي في التأثير في الحياة الاجتماعية وفي مسيرة وعي الوطن وفي ضرورة أن يتحول خط الشهادة والشهداء إلى منهج كامل ومتكامل وعميق ومستدام، وأن تدخل في اعتبارات الشهادة اتجاهات بناء الدولة كلها إدارياً واقتصادياً وحزبياً وسلوكياً، وعبر نظام أولويات يبدأ من الشهادة وينتهي عندها. ولعل ذلك هو المقام الذي ينتظر على ضفافه مهام المرحلة الراهنة والقادمة في كثير من الترقب والمتابعة واللهفة.

3. إن هذا المدى بل هذا الموكب المتنامي من مقومات الصمود قد وجد تحصيناته وزوايا تعميقه في تأكيد خط المقاومة، الذي دخلت فيه قوى المقاومة ذاتها في سوريا وفي لبنان (حزب الله)، وفي العراق، وكذلك في إيران الصديقة، إلى أن امتد هذا الأمر إلى إطلاق الموقف المقاوم بانبعائاته حتى شمل التنسيق السوري الروسي. وقد فهم الجميع أن المقاومة هي سلام وتضامن وهي إنجاز لقوة الحق

<sup>(31)</sup> "حافظ الأسد، طلائع تاريخ الأمة و باني مجد الوطن"، الجزء الثاني، من الكلمة التي ألقاها الرئيس حافظ الأسد في 12/4/1976، في افتتاح المؤتمر الثاني لاتحاد شبيبة الثورة، صادر عن دار الشرق العربي في حلب وبيروت.

وتأمين مصادر تلبية المشروعية ولا سيما في منحى الدفاع عن الذات، وكسر إرادة الاكتساح الغربي الصهيوني لشعوب المنطقة، بطريقة إفراغها من وحدتها والعمل بعد ذلك على التجزئة التي تعمق التجزئة القائمة، والوصول في نهاية الأمر إلى إفراغ الوطن السوري وسواه من مضامينه ومكوناته التاريخية وقدسيتها سيادته وكرامته، الأمر الذي ينتج في نهاية المطاف خلق الكيانات المبعثرة. وقد بدأ هذا المشروع فعلاً من خلال مأساة السودان، ثم حاول اختطاف مصر، وبث التناقضات في العراق حتى لحظة الاصطدام في الأداء الوطني السوري الذي شكل الصحوة بعد الكبوة.

4. كان هناك باستمرار، مع كل بند في بناء المقومات السورية، لحظة اعتبار، وقد تمثل ذلك في تلازم المواجهة العسكرية مع إجراء المصالحات التي وصلت الآن إلى حد مفهوم (الأوية) أي استعادة الوطن لأبنائه واستعادة الأبناء لوطنهم، وقد نمت هذه الخطى إلى درجة التخلص من دوافع الماضي الأسود وصولاً إلى مرحلة الانضواء في الحياة الوطنية الطبيعية ونقل السلاح إلى الكتف الذي ما زال يتقن فن حمل السلاح بالاتجاه الصحيح ونحو العدو الأساسي. وهنا تكاملت اللوحة الوطنية عبر خط الصمود بالذات واعتناق الشهادة والشهداء وإجراء المصالحات، وتكامل المعارك العسكرية والسياسية، وكذلك في إنشاء خط المقاومة الذي ضم المقاومين وأشقاءهم وأصدقاءهم، وبذلك تابع العالم كله تأثير الميدان في مجمل النشاطات السياسية التي برمجت في الأصل لتكون مجرد محطات يجري فيها الاستسلام السوري وتجري فيها لحظات (الانتصار المشوه والمزعوم) بما يمثله ويمن يمثله. لكن الوطن السوري قد ظهر على حقيقته وكنس في طريقه كل المعايير القائمة على اصطيات اللحظة بما فيها من نقاط ضعف وغموض في الرؤية بسبب تضحيات كثيرة، واستغرق زمناً طويلاً، لقد ظهرت حقائق ثلاث يمكن أن نسردها في الشهادات الآتية:

أ- أولها يتأكد من خلال رفض سوريا للإملاءات الأمريكية.  
ب- وثانيها كما يقول نعوم تشومسكي المفكر والفيلسوف الأمريكي: "أمريكا هي الدولة المارقة وليس سوريا لأن أمريكا تعدّ نفسها فوق القوانين وفوق الجميع"<sup>(32)</sup>.  
ت- وثالث الخلاصات يأتي على لسان شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي وهو في منفاه الأخير حيث يقول في كتابه: "لقد رمى بي الأمريكيون خارج إيران كمن يرمي فأرة ميتة من النافذة"<sup>(33)</sup>.

إن هذه الخلاصات هي التي يتعمق في مسراها الأداء الوطني السوري، وهي التي ما تزال تطلق موجة إثر أخرى من الانتصار على العدو، ومن إنجاز مهام الحياة الوطنية والإقليمية والعالمية المنشودة والواصلة إلى منتهاها طال الزمن أم قصر.

على أن ذلك في نهاية المآل لا بدّ أن يعطينا المؤشر المهم والحيوي، كما يقول المحلل السياسي الأمريكي جوشوا لانديس (Landis): "كان بشار الأسد يحظى بشعبية بين الشباب الذين يميلون إلى الجرأة في تحديد نقاط الضعف والثغرات في الحرس القديم، ولكنهم يريدون التغيير ومكافحة الفساد، ومن هنا فهم يحبون دعم الأسد بسبب التعددية والإصلاحات التي لا بدّ أن تجلب التحديث"<sup>(34)</sup>.

كان الدرس الأكثر بلاغة في الصراع على سوريا وفي سوريا يتمثل في ضرورة إنجاز قاعدتين: الأولى تقول: إن معركة ما بعد هزيمة المشروع هي الأقسى، والثانية تؤكد أن الأهم من النصر بمعالمه ومعانيه كلّها هو الحفاظ على النصر والعمل بموجب دروسه الكبرى.

<sup>(32)</sup> - نعوم تشومسكي، الدول المارقة، ترجمة أسامة اسبر، مكتب العبيكان، 2004.

<sup>(33)</sup> - مذكرات شاه إيران محمد رضا بهلوي، جواب على التاريخ، 1 أيلول 1980.

<sup>(34)</sup> - يوسف الفريخ، الإعلام والإرهاب- استراتيجيات المواجهة، 2016/11/27.

**المصادر والمراجع الأساسية:**

- تيم أندرسون، الحرب القذرة على سورية، ترجمة ناهد تاج هاشم، مركز دمشق للأبحاث والدراسات(مداد)، دمشق، 2016.
- حافظ الأسد، طلائع تاريخ الأمة وياني مجد الوطن"، الجزء الثاني، من الكلمة التي ألقاها الرئيس حافظ الأسد في 12/4/1976 في افتتاح المؤتمر الثاني لاتحاد شببية الثورة، صادر عن دار الشرق العربي في حلب وبيروت.
- سامي كليب، الأسد بين الرحيل والتدمير الممنهج، دار الفارابي للنشر والتوزيع 2016.
- صحيفة السفير، شباط 2002.
- صحيفة الاتحاد، حزيران 2015.
- صحيفة الأهرام، أيلول 2011.
- صحيفة الحياة، أيلول 2010.
- صحيفة The Newyorker، 28 تموز 2003.
- مجلة الأخبار، 17 كانون الثاني 2009.
- مجلة المناضل، تموز-آب 2000.
- مذكرات شاه إيران محمد رضا بهلوي، جواب على التاريخ، أيلول، 198 .
- مركز دراسات الوحدة العربية، 2016/12/19.
- مقتطفات وشواهد من أقوال وخطب الرئيسين حافظ الأسد وبيشار الأسد.
- موسوعة ويكيبيديا، تشرين الأول 2015.
- ميشيل ريمبو، عاصفة على الشرق الأوسط الكبير Michel Raimbaud, tempete sur le Grand Moyen-Orient, Ellipses, Paris 2015
- نعوم تشومسكي، الدول المارقة، ترجمة أسامة اسبر، مكتب العبيكان، 2004.

- هريرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، 2004.
  - وكالة سانا، أرشيف الرئاسة، 2000.
  - يوسف الفريخ، الإعلام والإرهاب-استراتيجيات المواجهة 2016
  - [www.alalam.ir](http://www.alalam.ir) ، 29 آذار 2016.
  - [www.bbc.com](http://www.bbc.com) ، 2013/9/14.
  - <http://www.presidentassad.net> ، 2001.
  - [www.RT.com](http://www.RT.com) ، 2015/9/11.
-

